

جورج عزيز

هو شي منه

لبنان ١٠٠ ق . ل   سوريا ١٠٠ ق . س   الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق – الكويت ١٠٠ ف . ع الخليج العربي ١٥٠ ف السعودية ٢ ريال
عدن ٣,٥ شلن   السودان ١٢٠ مليماً   ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم   الجزائر ٢,٢٥ دينار   المغرب ٢,٢٥ درهم



رئيس التحرير : عادل الغضبان



بأسلوب اليوم وتفكير الغد

جورج عزيز

هوشي منّه

الزعيمُ الأُسطوري

اقرأ ٣٢٤
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٢٤ – ديسمبر سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

إلى أبطال المقاومة فى الأرض المحتلة

جورج عزيز

تعزية من الرئيس جمال عبد الناصر
فى وفاة الرئيس هوشى منه

بعث الرئيس جمال عبد الناصر فى الرابع من شهر سبتمبر الماضى برقية إلى السيد فام فان دونج رئيس وزراء فييتنام الديمقراطية معزياً فى وفاة الرئيس هوشى منه . قال فيها :

« تأثرت غاية التأثر لنبأ وفاة الرئيس هوشى منه . ولا شك أن فقد هذا المناضل العظيم ، الذى كرس حياته من أجل الدفاع عن حرية شعبه ، وحمل مشعل التحرر فى بلاده ، تعد خسارة كبيرة لفييتنام والشعب الفييتنامى . ويشاركنى شعب الجمهورية العربية المتحدة فى الإعراب لكم وللحكومة وللشعب الفييتنامى ، عن أخلص التعزية القلبية ، وصادق المواساة » .

رسالة من الرئيس جمال عبد الناصر
إلى مؤتمر تأييد شعب فييتنام

معركة الحرية لاتتجزأ
وتضامن الشعوب المناضلة
سينتصر على كل أسلحة العدوان

بعث الرئيس جمال عبد الناصر فى الرابع من شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ برسالة إلى المؤتمر الطارئ لتأييد شعب فييتنام ، الذى بدأ يومئذ فى القاهرة ، هذا نصها :

« باسم شعب الجمهورية العربية المتحدة وباسمى ، أرحب بمؤتمركم فى أرض هذا البلد الذى خاض، وما زال يخوض، أسمى معارك الكفاح ضد العدوان الاستعمارى من أجل تحقيق الحرية ، وإرساء دعائم السلام القائم على العدل . إن مؤتمركم ينعقد فى مرحلة تاريخية حاسمة بلغ فيها الصراع بين قوى الاستعمار وبين الشعوب المناضلة ذروته .

« وفى مقدمة هذه الشعوب المناضلة يقف الشعب الفييتنامى الباسل الذى تزداد مقاومته قوة وصلابة كلما ازداد العدوان الأمريكى الاستعمارى ضراوة ووحشية .

« إن الشعب الفييتنامى يخوض معركة بطولية من أجل حقه فى الحرية والاستقلال . ولقد استطاع أن يصمد أمام أعتى قوى الاستعمار والعدوان ، ويواجه ببسالة الحرب العدوانية التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ضد فييتنام الجنوبية ، وأن يقف صامداً أمام العدوان والغارات الجوية ضد جمهورية فييتنام الديمقراطية .

إن الشعب الفييتنامى يخوض معركته الشريفة من أجل وقف العدوان ، والتحرر الوطنى ، ومن أجل تنفيذ اتفاقية جنيف التى عقدت عام ١٩٥٤ تنفيذاً كاملا حتى يمتلك الشعب الفييتنامى حقه فى تقرير مصيره ، وتحقيق وحدته » .

« إن كفاح الشعب الفييتنامى جزء من نضال الشعوب المكافحة ضد الاستعمار من أجل التحرر الوطنى ، والبناء الاقتصادى ، والتقدم والسلام .

فى أفريقيا تقف قوى الثورة الوطنية ببسالة أمام قوى الاستعمار ومؤامراته وعملائه لتواجه التمييز العنصرى ، والضغوط الاقتصادية ، والثورات المضادة ...

وفى الشرق الأوسط يقف الشعب العربى صامداً أمام العدوان الاستعمارى الإسرائيلى الذى يؤكد حقيقة إسرائيل كقاعدة استعمارية ، ويؤكد طبيعتها العنصرية التوسعية العدوانية التى تستهدف عرقلة التقدم العربى ، واستنزاف موارد الدول العربية ، والقضاء على آمال الوحدة العربية ، بل ويضرب تضامن الشعوب

الأفريقية الآسيوية ونضالها من أجل التحرير الوطنى . والتقدم الاجتماعى ، والتنمية الاقتصادية ، ويشكل خطراً على السلام ، ليس فقط فى الشرق الأوسط بل خطراً تمتد آثاره لتهديد السلام العالمى كله » .

إن معركة الحرية لا تتجزأ ، وإن الشعب الفيتنامى ، بموقفه الباسل فى وجه العدوان الاستعمارى ، يؤكد أن العدوان ، مهما بلغت قوته ، لا يجدى ، وأن حق الشعوب أقوى من بطش المعتدين ، وأن تضامن الشعوب المناضلة من أجل حريتها ومن أجل حقها فى الحياة سينتصر على كل أسلحة العدوان ، وسيحقق فى النهاية ، برغم كل النكسات والعثرات ، عالماً أفضل تزول منه مظاهر الاستغلال ، والاستعباد ، والعنصرية ، وتسود فيه العدالة والرفاهية والسلام » .

مقدمه

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الرابع من شهر سبتمبر الماضى طوى الموت المناضل الفذ هوشى منه رئيس فييتنام الديمقراطية (الشمالية) بعد أن ساءت صحته . وفشلت الجهود فى إنقاذه .

وكان الزعيم الفييتنامى الراحل الذى أصبح أسطورة بين شعوب الشرق الأقصى ، قد احتفل فى التاسع عشر من شهر مايو الماضى بعيد ميلاده التاسع والسبعين . وقد شوهد حينئذ وهو يرقص فى شوارع هانوى مع الأطفال والصبية .

وقال المعلقون فى إذاعة فييتنام الديمقراطية يومئذ إنهم سعداء لأنهم شاهدوا العم « هو » يبدو ، رغم إن السيجارة لا تفارق فمه ، وكأنه فى العشرين من عمره .

إن وفاة هوشى منه لتذكرنا بعدة حقائق غاية فى الأهمية ، لعل أخطرها أنه قاد معركة حفزت كل أسيوى إلى أن يرفع رأسه متحدياً كل باطل . . .

* * *

بدأ العم « هو » يشتعل حماساً ، ويناضل فى غير هوادة ، منذ زهاء نصف قرن . . عاش فى المخابئ وكهوف الجبال ، وخاض غمار أعنف المعارك التى كان يكثر فيها الكر والفر ،

وسعد بثقة شعبه الذى يكن له حبًّا صادقاً ، خالصاً ، وتولى رياسة الجمهورية لأن الشعب لم يرض بغيره رئيساً . .

لقد أنفق نصف قرن فى نضال مرير من أجل الأمة الفييتنامية ، وفى سبيل الثورة اللينينية . . كان نضاله — ولا يزال — من نوع فريد لم يسبق له مثيل فيما يتعلق بتنوع الخطط التكتيكية ، وشدة التباين بين المواقف ، والمرونة العجيبة فى المناورة ، والأخطار الشديدة التى تعرض لها ، والتضحيات الجسام التى لم يجد مفرًّا من بذلها . . .

هذا الرجل ذو الجسم الضئيل ، والوجه الذى يشبه الشاى فى لونه ، والذقن التى يقترب لونها من لون الأرز ، والنظرة الفاحصة المدققة ، والعينين اللامعتين اللتين يعلوهما جبين يتوجه شعر أبيض ، خفيف ، ثائر أبداً . . .

هذا الرجل الذى يبدو « هشًّا » وكأنه لا يعيش إلا بقوة الخيال والتصور ، وفى نيران الكفاح والنضال . . .

هذا الرجل الذى خاض غمار أطول حرب ضد أقوى الدول ، هو الذى استطاع أن يهيىء شعبه الباسل للصمود أمام المارد الذرى الأمريكى . . .

لقد انتهى نضال « لينين » فى بداية عام ١٩٢٤ ، وانتهى كفاح « تروتسكى » فى غضون سنة ١٩٤٠ ، ولم يظهر « ماوتسى تونج » قوته الحقيقية إلا فى سنة ١٩٢٧ ، ولم يبدأ نفوذ « تيتو » يتجلى إلا فى سنة ١٩٤٢ . . .

أما العم « هو » — هوشى منه — الذى استلهم الثورة الفرنسية . فهو مناضل اشتراكى منذ ثورة أكتوبر . . .

كان عضواً فى الحزب الشيوعى الفرنسى . وعضواً فى الحزب الشيوعى السوفييتى . ولعله انضم . خلال فترة ، إلى عضوية الحزب الشيوعى الصينى .

وهو مؤسس الحزب الشيوعى الهندى الصينى وحزب « الفييت منه » ثم حزب « لاو دونج » . وذاق الأمرين فى سجون يونان حيث كانت قدماه مكبلتين بالحديد !

ولقد اضطرته ظروفه الخاصة إلى أن يتخذ لنفسه عدة أسماء نذكر منها : « كونج » و « نجوين تاب ثانه » و « با » و « نجوين إى كووك » و « فوونج » و « شن » و « لين » و « تران » . . وأخيراً « هوشى منه »

هذا الرجل الذى دخل اسمه التاريخ من أوسع أبوابه . استطاع بجلده العجيب ، ومثابرته المثالية ، وروحه البطولية ، أن يبعث أمة من الموت ، ويشيد دولة ، ويقود شعبه فى حربين ضاريتين.

لقد أسفر نضاله ضد فرنسا عن تصفية إمبراطورية استعمارية كبرى . . .

أما الحرب التى أدارها ببراعة وجرأة ضد الولايات المتحدة ؛ فقد جاءت برهاناً قوياً دامغاً على أن للقوة المادية الغشوم حدوداً أمام الإنسان . . . .

جورج عزيز

مصر الجديدة ١٩٦٩

الفصل الأول

أرض الأبطال والشعراء

الطريق المؤدى إلى قرية العم « هو » فى إقليم « نجه آن » جزء من منظر طبيعى رائع يستمد جماله وفتنته من سحر البحيرات الخضراء ، والجبال الزرقاء . . .

وإذا وقف المرء على جبل «شونج» ، الذى تقع على مقربة منه القرية التى ولد فيها أبوه ، ثم القرية التى نشأت فيها أمه ، لاستطاع أن يمد بصره إلى كل أرجاء تلك المنطقة التى تعد أرض أشهر المناضلين الثوريين فى فييتنام . . . إنها أرض الأبطال ، ولكنها ، فى الوقت نفسه ، أرض الشعراء الذين يجيدون لغة السياسة والوطنية مثلما يجيدون لغة الحب النقى الخالص .

ومن حق أهالى « نجه آن » أن يفخروا بأن إقليمهم كان ، فى كثير من المناسبات ، المعقل الأخير الذى تحطمت أمامه جيوش الغزاة ، أو الميدان الذى اشتعلت فيه الثورات ضد المستعمرين .

فنى غضون عام ١٤١٨ قام أهالى الإقلم بحركة تمرد عارمة ضد جيش الاحتلال الذى كان يحمى مصالح الإقطاعيين الصينيين ، واشتركوا مع أهالى الأقاليم الأخرى فى تنظيم حركة مقاومة غاية فى العنف أسفرت ، فى النهاية ، عن تحرير البلاد من كل أثر للاستعمار .

وبعد ذلك بثلاثة قرون حدث فى سنة ١٧٨٩ أن غزت قوات « المنج »(١) فييتنام . فما كان من سكان إقليمى « نجه آن »

---

(١) أسرة مالكة حكمت الصين من سنة ١٣٦٨ حتى سنة ١٦٤٤ . وقد أسسها الراهب البوذى شويوان شانج الذى طرد المغول من الصين . وكانت الإمبراطورية الصينية تمتد فى أزهى عصور هذه الأسرة من بورما إلى كوريا .

و « ثانة هوا » إلا أن جندوا جيشاً قوامه خمسون ألف مقاتل استطاع أن يمزق أوصال القوات الغازية . ويسترد العاصمة .

وحين كانت البلاد خاضعة للسيطرة الفرنسية كان إقليم « نجه آن » ميداناً لأحداث ثورية معادية للاستعمار .

فى الفترة التى امتدت من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٦ ، قام المثقفون (فان ثان) بحركات وطنية على أعظم جانب من القوة .

وفى سنة ١٩٠٤ قاد الزعيم الوطنى « فان بواشو » ما أسماه بـ « دونج دو » أى حركة السفر إلى الشرق ؛ وهى حركة وطنية كانت موجهة ضد السيطرة الفرنسية. ولقد طلب إلى اليابان أن تساعده على مكافحة المستعمرين الفرنسيين وتحرير البلاد ، بيد أن السلطات الاستعمارية الفرنسية استطاعت التفاهم مع اليابان على خنق تلك الحركة .

وفى سنة ١٩٣٠ انضم الأهالى – تحت إشراف الحزب الشيوعى الهندى الصينى – إلى العمال والفلاحين لمكافحة الإقطاعيين والاستعماريين الفرنسيين . وقد تبلورت تلك الحركة التى كانت تسمى « نجه تنه » فى إقليمى « نجه آن » و « هاتفه » فى وسط فييتنام حيث تصدعت الحكومة الاستعمارية الفرنسية ، وأنشأ الثوار حكومة شعبية ، وكان رد فعل الاستعماريين أن أغرقوا البلاد فى الدماء .

إن « نجه آن » إقليم كثير الجبال والغابات ، قليل الأراضى الزراعية. وفى الصيف تهب عليه رياح ساخنة من الجنوب الغربى هى رياح « لاوس » التى تجفف الأرض وتجعلها تتشقق ، وتحرق المزروعات ، وتسبب للأهالى ضيقاً ما بعده ضيق ، ثم يجىء موسم الأمطار الشديدة ، والأعاصير العنيفة . وفى هذا يحكى أفراد قبائل الـ « ميو » الذين يعيشون فى المناطق الجبلية ، أنه حدث ذات يوم أن استبد الغضب بالسماء إلى حد جعلها تعصف بعدة آلاف من الناس دفعة واحدة! ويروى أهالى الإقليم حكايات أغرب من الخيال عن الفيضانات والأعاصير

المدمرة التى عانى منها أسلافهم الأمرين . وأخطرها إعصار سنة ١١٣٧ الذى اقترن بهزة أرضية غاية فى الشدة والعنف . . وكان من جراء ذلك كله أن « أصبح ماء النهر أحمر كأنه دم » .

على أن أهالى هذا الأقليم لا يدخرون وسعاً فى سبيل السيطرة على هذه الطبيعة القاسية المتمردة التى علمتهم الصبر . والمثابرة ، والنظام ، والاقتصاد والقدرة الخارقة على مواجهة الشدائد والأخطار ، والتعاون الصادق الوثيق فى ساحة الوغى .

وكان من أثر المعارك الطاحنة التى خاضها أهالى هذا الإقليم ضد الطبيعة والغزاة . أن كثرت الشخصيات البطولية الأسطورية فى تاريخهم ، وأصبحت لهم تقاليد فريدة أساسها قوة الأحتمال . والتضامن إلى أقصى حد . والجرأة التى قل أن يكون لها ضريب ، والتفانى فى العمل ، والاستبسال فى الذود عن الوطن . ولقد أسهم هذا كله فى ازدهار حياتهم الثقافية . وتكوين كنز من الأدب الشعبى : القصص ، والروايات ، والمسرحيات . والأناشيد ، والأغانى .

* * *

فى هذا الجو ، وفى هذه البيئة ، وبين أحضان هذه الطبيعة المتمردة دائماً ، نشأ « هوشى منه » رئيس جمهورية فيتنام الديمقراطية الراحل .

كانت قرية « كيم ليينى » التى ولد فيها ، مكتظة بالأهالى الذين كان كل منهم يملك مالا يزيد على ٣ ساو ، أى ما يقرب من ٣٦٠ متراً مربعاً من مزارع الأرز ، أما الأثرياء فكان كل منهم يملك مالا يقل عن مائة ماو ، أى ما يساوى ٣٦٠٠ متر مربع . وكان كثيرون من القرويين أجراء زراعيين ، ويرتدون ثياباً ممزقة أو يكتفون بسراويل بسيطة.

ومع ذلك فقد كانت للحياة لحظاتها السعيدة ، وكان الناس يغنون أحياناً ، متناسين ما يعانونه من عوز وفاقة . . .

* * *

إن حب المرء لمسقط رأسه ، وقطعة الأرض التي رأى فيها النور لأول مرة في حياته لا يمكن أن يزول . . .

كان « هوانج كسوان هانه » من مواليد هذه المنطقة ؛ وعم « هوشي منه » ؛ قد انضم إلى «دي ثام» زعيم حركة تمرد الفلاحين على القوات الفرنسية في فيتنام الشمالية في سنة ١٨٨٧ ، وهي حركة دامت زهاء ثلاثين عاماً . ولكن « هوانج » رأى أن يعود بعد مدة إلى قرية « بولو » في إقليم « نجه آن » بعد أن أدى واجبه في الشمال ، وذلك ليواصل مقاومة السيطرة الفرنسية .

وإن هي إلا بضعة أشهر حتى اعتقلته السلطات الفرنسية ، ورحلته إلى جزيرة « بولوكوندور » . وحين مثل أمام حاكم الجزيرة ليأمر بإعدامه صدم فكه بالأرض صدمة عنيفة ليقطع لسانه ! . . وفعلا قطع جزءاً من لسانه ! ! .

وعندئذ أدرك الحاكم العدو أنه لن يستطيع أن يحمله على الكلام ، ومن ثم أطلق سراحه فرحل إلى مدينة « هيويه » .

* * *

لم ينشأ العم « هو » في أسرة أرستقراطية على الرغم من أن أباه حصل على الدكتوراه في الآداب الصينية ، إذ الواقع أن الأسرة ، واسمها « نجيين سينه » ، لم تكن تضم فرداً واحداً على درجة من الثراء ، فقد كان معظمهم يعملون أجراء .

والسؤال الذي ينبغي أن نوجهه إلى أنفسنا إذن هو : كيف يمكننا أن نفسر ظهور رجل يحمل دكتوراه في الآداب في أسرة « نجيين سينه»؟

كان « نجيين سينه ساك » ، أبو العم « هو » من أسرة قروية ، وابناً لامرأة من طبقة متواضعة . واضطر بعد أن أصبح يتيماً في صغره إلى أن يعيش مع شقيق من أم أخرى تنتمي إلى طبقة أرقى . والواقع أنه كان يحيا حياة الخادم . وحدث ، ذات يوم ، أن غضبت زوجة أخيه

لأنه لم يقطع الخضر بالطريقة التى كانت تريدها ، فما كان منها إلا أن قذفته بأحد الأوانى . وكان من أثر ذلك أن طفق يفكر فيما يسعه أن يفعله لينقذ نفسه من هذا الجحيم : وسرعان ما استقر رأيه على أن يتعلم ، فالتحق بمدرسة متواضعة كان قد افتتحها فى القرية ، إذ ذاك ، مدرس من الحاصلين على ليسانس فى الأدب الصينى يدعى « هوانج كسوان آن» وهكذا بدأ هذا الشاب يتعلم ، ويستذكر دروسه فى كل مكان . . . على ظهر البغل . أو بالقرب من آلة تنظيف الأرز ، أو أثناء قيامه بحراسة البقر .

وبعد فترة من الزمن قرر « هوانج كسوان آن » أن يعود إلى مسقط رأسه « شوا » ، ليفتتح هناك مدرسة كبيرة ، وطلب من « سينه ساك » أن يرافقه ، فوافق على الفور .

وقد واصل الشاب الصغير فى « شوا » العمل الذى كان يمارسه فى القرية وهو حراسة البقر ، وفى الوقت نفسه أكب على الدراسة ، ولم يلبث أن تفوق فيها ، وكانت للأستاذ ابنتان تدرسان ، بدورهما ، الأدب الصينى . وكانت كبراهما تبدى شعوراً رقيقاً نحو هذا الشاب الرشيق النابه ، وفكر الأستاذ فى مسألة الزواج ، ولما فاتح زوجته فى الأمر رفضت بشدة قائلة :

ألم يعد فى القرية شبان لكى تفكر فى تزويج ابنتك من خادم ؟

وهنا قال لها الأب إن « ساك » شاب متعلم ، وإنه سينجح فى الامتحان ، وهكذا استطاع أن يقنع زوجته آخر الأمر . ثم بنى للزوجين بيتاً متواضعاً فى حديقة المنزل ، وأعطاهما قطعة أرض مزروعة أرزا .

وفى ذلك البيت المتواضع الذى كان أقرب إلى الكوخ منه إلى أى شىء آخر : ولد « هوشى منه » واخته « ثانه» وأخوه « خيم » .

وفى غضون عام ١٨٩٤ ، ظفر راعى البقر السابق بالليسانس فى الآداب الصينية ، وسافر مع زوجته إلى مدينة « هيويه » . وبعد قليل عادت هى إلى القرية لتأخذ الأولاد . ولقد شغل « ساك » أول الأمر ،

منصباً فى الكلية الوطنية « كلية كووك توجيام » . ثم عين مدرساً فى مدرسة الزراعة .

وفى سنة ١٩٠٠ وقع عليه الاختيار ليكون أحد الممتحنين فى مسابقة للمثقفين نظمت فى مدينة « ثانه هوا » . واصطحب معه ابنه البكر . وبقيت زوجته فى « هيويه » حيث وضعت ابنهما الأخير . وبعد أن فرغ « ساك » من ذلك الامتحان عاد إلى القرية ، ثم سافر إلى « هيويه » حيث حصل على الدكتوراه .

وعاد « ساك » إلى « فنه » . فهرع إليه القرويون ليقترحوا عليه أن يقيموا حفلا لتكريمه . فرفض بحجة أنه لم تمض فترة طويلة من الزمن على وفاة زوجته . يضاف إلى ذلك أنه لم يكن يملك بيتاً يستقبل فيه المحتفلين به .

بيد أن الأهالى كانوا شديدى الإعجاب بمواطنهم « ساك » لحصوله على الدكتوراه ، إلى حد جعلهم يشترون له بيتاً من الخشب فى منطقة « كسوان لا » ، ثم نقلوا البيت كله إلى قرية « كيم ليين » ، وأقاموه فى قطعة أرض واسعة ، وزرعوا حوله حديقة .

ومنذ ذلك الوقت جاءت كل الأسرة للإقامة فى « كيم ليين » ، وأصبح الدكتور الجديد الشخصية المرموقة فى المنطقة . و لجأ إلى شتى الحيل ليرجئ سفره إلى « هيويه » حيث كان سيعين فى منصب حكومى كبير . ولكن القصر الملكى والسلطات الاستعمارية الفرنسية استطاعت ، بعد لأى ، أن تكرهه فى سنه ١٩٠٥ على السفر إلى « هيويه » ليشغل منصب سكرتير بوزارة المذاهب الدينية .

وأراد أحد سكان القرية أن يذهب معه فبادره قائلا : « ابق هنا وحاول أن تكسب عيشك . . ثق أنه من المستبعد جداً أن أصبح من كبار رجال الحكومة » .

وفى « هيويه » كان يلقى ، من وقت إلى آخر ، محاضرات لتفسير

النصوص الأدبية والفلسفية فى قاعة « دى لوان » التابعة للكلية الوطنية . وبعد أن فرغ من إلقاء محاضراته ذات يوم ، قال لتلا ميذه : « إن الوظائف الحكومية الكبيرة هى عبودية العبودية » .

وفى سنة ١٩٠٩ تقرر تعيينه نائب حاكم فى مقاطعة « بينه خى » فى قلب إقليم بينه دينه ، ولكنه كان كثير التردد فى إصدار أحكام فى القضايا التى كانت تعرض عليه ، أو يصدر أحكاماً غاية فى التسامح . ولما اكتشف المدير الفرنسى العام ذلك أثناء إحدى جولاته التفتيشية ، قرر فصله من منصبه .

ولم يعد « ساك » إلى قريته ، بل ظل يتنقل من إقليم إلى إقليم فترة من الزمن . ثم ذهب إلى الجنوب . وفى غضون سنة ١٩٢٦ كان فى سايجون . ويروى أنه كان يقف كل يوم فى شارع « لاجرانديير » مرتديا ثوب القرويين فى الجنوب ، وهو مكون من جاكته وبنطلون سوداوين ؛ ليقدم نصائح طبية إلى المرضى لقاء أجور زهيدة ، ولم تكن وجباته الغذائية تتجاوز قليلا من الأرز وبيضة مسلوقة .

وكثيراً ما كان يأوى إلى أحد المعابد البوذية بالقرب من كوبرى « أونج لانه » ، إذ كان الرهبان البوذيون يسمحون له بذلك لأنه كان يقرأ لهم الآيات البوذية .

وحين عاد « هو » إلى كانتون ، علم أبوه بذلك وسأل عنه ، ذلك أن نشاط ابنه الثورى كان له صدى أخذ يتسع شيئاً فشيئاً فى البلاد . وكان البوليس الاستعمارى يخشى الاتصالات بين الأب والابن ومن ثم اضطر « ساك » إلى الرحيل من سايجون إلىساديك حيث قويت أواصر الصداقة بينه وبين قروى عجوز يدعى الأب « نام جياو » الذى كانت أسرته تتوارث « الوصفات الطبية الشهيرة » من جيل إلى جيل ، وعلى بعد بضع مئات من الأمتار من بيت « نام جياو » كان هناك معبد اسمه « نزواسانه » وكان « ساك » يوزع وقته بين بيت صديقه والمعبد والرحلات.

وفى المناطق الجنوبية حيث يكثر البعوض ، ينام الفقراء داخل أكياس من قش الخيزران المجدول . وقد اشتهر « ساك » باسم « الدكتور صاحب الكيس » لأنه كان يحمل كيساً من هذا النوع أينما ذهب !

وفى سنة ١٩٢٠ سافر إلى مدينة « شان دوك » ليزور صديقاً قديماً . ولكنه مرض وهو فى طريق العودة ، وأغمى عليه . وعندما أفاق رفض أن يتناول أى طعام أو دواء ، وساءت حاله ، ولم يلبث أن أسلم الروح .

وبينما كان الأب يحيا تلك الحياة غير المستقرة فى الجنوب ، كانت الآنسة « ثانه » والسيد « خيم » على اتصال — فى قرية الأسرة — بـ « دواكويين » و « دوافان » زعيمى الثوار فى إقليم « نجه آن » . وكان من جراء ذلك أن اعتقلا فترة طويلة من الزمن .

كانت الآنسة « ثانه » قوية الشخصية ، يقظة ، شجاعة ، ومثقفة . وكانت تمارس الطب الشرقى . وقد جاءت إلى « فنه » حيث افتتحت مطعماً لضباط وجنود الميليشيا ، وكانت تأخذ منهم أسلحة بشتى الحيل وترسلها إلى الثوار فى « بولو » .

ولقد بادرها الحاكم المحلى ذات يوم قائلا : « إن النساء الأخريات يلدن أطفالا ، أما أنت فإنك تلدين بنادق ! » . وبعد فترة من الزمن رحلت إلى « هيويه » لكى تنقل رفات أمها إلى مسقط رأسها . ويقال إنها اغتنمت تلك الفرصة لتنقل معها أسلحة ، وإن الحاكم قرر لهذا السبب ترحيلها إلى « كوانج نجاى » ، ثم لم يلبث أن أعادها إلى « هيويه » ووضعها تحت المراقبة .

وفى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ تساءل أهالى « سن » عندما وقعت أبصارهم على صور رئيس الجمهورية عن هذه الشخصية ولم تكن الآنسة « ثانه » أقل اهتماماً منهم بمعرفة كل شىء عن الرئيس ، ومن ثم قالت لهم : « سأسافر إلى هناك لأقف على كل شىء ، وليرتاح قلبى ».

وأخذت معها بطتين وعشرين بيضة وسافرت إلى العاصمة ! والتقى الأخ والأخت مرة أخرى . وقد عادت إلى القرية حيث طواها الموت فى سنة ١٩٥٤ . ومع أنها كانت جميلة وذكية ، فإنها لم تتزوج أبداً . ويروى أن شاباً حاصلا على ليسانس الآداب طلب يدها فرحبت به أيما ترحيب مع أنها لم تكن تنوى أن توافق على الاقتران به . ولما كانت السلطات الحاكمة تراقب أفراد الأسرة جميعاً ، فقد ألقت القبض على ذلك الشاب لأنه طلب يدها ، ولم تطلق سراحه حتى لكى يودع أباه إلى مثواه الأخير ! وأمام هذا المسلك الفوار بالظلم الصارخ أسرعت إلى عاصمة الإقليم لمطالبة المسئولين بأن يسمحوا لها بأن تحل محل الشاب فى السجن حتى يمكن الإفراج عنه ، ولكنهم رفضوا طلبها ! .

وكان « خييم » ذا شخصية قوية ، شديد الكبرياء . وحدث ، ذات يوم ، أن بعث إلى الحاكم الفرنسى العام « ألبيرسارو » بتقرير عن البؤس الذى يعيش فيه الشعب قائلا : إن الحال ، بوجه عام ، تحتاج إلى إصلاحات عديدة . وبعد أيام دخل مكتب نائب الحاكم ليسأل عن مصير تقريره ، فأمطره وابلا من الشتائم ، وحاول أن يركله غير أن « خييم » أمسك بساقه وأوقعه على الأرض . مع إن « خييم » كان فقيراً فإنه لم يكن يبخل بما لديه — بضعة قروش أو جاكتة قديمة — على المعدمين . وكان أول من نظم التعليم بطريقة « كووك نجو » أى كتابة اللغة الفييتنامية بحروف لاتينية . ووافته المنية وهو أعزب فى سنة ١٩٥٠ .

ومن سخرية القدر أنه حين عادت الآنسة « ثانة » و « خييم » إلى قريتهما اضطرا إلى الإقامة عند الجيران ، ذلك أن بيت جدهما كان قد هدم منذ زمن طويل ، كما أن البيت الخشبى الذى كان الأهالى قد أهدوه إلى « ساك » تصدع ، وأوشك أن ينهار .

هذه البيئة العائلية التى ذاقت الأمرين من قسوة القدر كان لها أكبر الأثر فى توجيه حياة العم « هو » .

الفصل الثانى

كل شيء يهون فى سبيل الثورة

كانوا يسمونه . وهو طفل : « نجويين سينه كونج » ، وقد أرضعته إحدى خالاته لأن أمه لم تستطع أن تفعل ذلك .

وكان ، وهو صبي . يرتدى سترة ذات أزرار جانبية ، وكان يصفف شعره على نحو أثار . فيما بعد ، سخرية زملائه فى « هيوبه » .

وكان لايكف عن توجيه الأسئلة عن كل شيء حوله . وحدث . ذات يوم . أن أرعدت السماء وأبرقت ، فسأل أحد الرجال عن سبب هذا القصف الشديد ، فلما أجابه بأن ذلك يحدث فى السماء ، سأله مرة ثانية : « هل هناك أشياء أخرى فى السماء ؟ هل هناك رجال ؟ »

على أنه لم يكن فى وسعه — لصغر سنه— أن يفهم الأحداث الكبرى التى كانت تدور حوله . : مثال ذلك أن قوات المتمردين والثوار كانت تستبسل فى القتال فى أماكن عدة ، ومع ذلك فقد استطاعت قوات الاستعمار والرجعية أن تحطم حركة التمرد فى « تان هوا » .

ولكنه وقف على كل ما كان يحتاج إليه من تفاصيل عن تلك الأحداث فيما بعد ، وكان أثر ذلك فى نفسه قوياً ، بعيد المدى .

وحدث : بعد عشرين عاماً ، حين كان يعمل « مرمطونا » فى أحد مطاعم لندن ، أن أجهش بالبكاء عندما تذكر فجأة أن البطل الثائر « تونج دوى تان » شق بطنه بعود من الخيزران المدبب بعد أن وقع فى الأسر ! .

* * *

كانت الحال تزداد سوءاً يوماً فى إثر يوم ؛ وكان المعتدون يبدون وحشية لم يعرف أحد مثلها . وكان الشعب ينتظر من المثقفين الوطنيين أن يرشدوه ويوجهوه ، لأنه كان شديد الحرص على أن يعرف مصير كل هذه الجهود والتضحيات التى يبذلها ، والنتائج التى يمكن أن تترتب عليها .

ولقد صور أحد القرويين الموقف وقتئذ بهذين البيتين :

ستكون معارك الغد ضارية كبيرة !

وستملأ جثث الموتى الأنهار ، وستقطر السيوف دماً !

* * *

كان فى الثامنة من عمره عندما سافر إلى « هيويه » . لم يكن قد أنشئ بعد خط حديدى بين « فينه » وبين عاصمة فييتنام الوسطى ، ومعنى ذلك أن هذا الفتى قطع مسافة الثلاثمائة كيلو متر التى تفصل بين المدينتين ، سيراً على قدميه النحيلتين حيناً ، وعلى ظهر حمار أو جواد حيناً آخر .

ولكن لاشك فى أنه تعلم الشىء الكثير أثناء مروره خلال الأقاليم الخمسة التى تقع بين المدينتين : لقد مر بمدن كلها حركة وحياة ، ودخل قرى يخيم عليها الهدوء ، واجتاز غابات كثيفة عميقة ، ومناطق جبلية تطل على المحيط الشاسع .

ولقد شرع ، خلال تلك الفترة ، يتعلم القراءة والكتابة ، بيد أن مدرسته الكبرى لم تكن دائماً فى الكتب ؛ بل فى خضم الحياة نفسها : فكثيراً ما كان يقوم برحلات طويلة مع أخيه وبعض الأصدقاء .

وفى « هيويه » شاهد الصبى أشياء جديدة : جدران القلعة الشاهقة ، والدور الفخمة ، والجنود الفرنسيين الذين لا يكفون عن شرب النبيذ ، والمهندسين الذين شرعوا فى بناء جسر « تراتيج ثيان » على نهر « العطور » .

فى تلك الأثناء – أى فى غضون عام ١٩٠٠ – فقد « كونج » أمه . كان الدكتور « ساك » قد سافر إلى مدينة « ثانه هوا » للإشراف على

بعض الامتحانات . واصطحب معه ابنه البكر . وكانت الأسرة تقيم فى غرفة مظلمة أمام مبنى إدارة « الرقابة » . وكان « كونج » الذى بلغ وقتئذ العاشرة ، هادئاً ؛ لطيف المعشر . وكانت أمه تؤثره بحبها لأنه « آخر العنقود » ؛ ولكنها لم تلبث أن ماتت بعد أن وضعت مولودها الجديد « كسين » الذى طواه الموت بدوره بعد بضعة أعوام من جراء ضعف بنيته .

وإن هى إلا سنوات معدودة حتى عادت الأسرة إلى القرية . وقد رأى أبوه وقتئذ أن يغير اسمه بمناسبة بلوغه العاشرة . فأسماه « نجوين تاه ثانه » ، وألحقه بمدرسة كان يشرف عليها أستاذ ذاعت شهرته فى ذلك الوقت هو « هوانج فانه كويينه » ؛ ولكن اهتمام الصبى بالقصص والروايات مثل رواية « الممالك الثلاث » الصينية ، كان أقوى بمراحل من اهتمامه بالكتب المدرسية .

على أن اهتمامه بالقراءة وما كان يبديه من حرص شديد على توسيع معلوماته ، وعلى العيش فى صميم الحياة لا على هامشها ، لم يكن يمنعه من قضاء أوقات الفراغ فى ممارسة بعض الألعاب المسلية ، مثل الشطرنج ، واللعب « بالنحلة » .

وكان الدكتور « ساك » مهتماً كل الاهتمام بأن يحصل ابنه على درجة علمية ، فألحقه بمدرسة ثانوية ، وشرع هو — على الرغم من بلوغه الخمسين — يتعلم الفرنسية .

ومع أن احتمالات المستقبل كانت لا تزال غامضة فى نظر « ثانة » لأنه لم يكن قد شب عن الطوق بعد ، فقد كان مقتنعاً كل الاقتناع ، بأن ثمة أمرين ضروريين هما : طرد الفرنسيين من البلاد ، وزيادة محصوله العلمى بكل الوسائل المتاحة له .

وأتيحت لـ «ثانه» إذ ذاك فرصة ذهبية للاشتراك فى إحدى الحركات الثورية التى كانت تستهدف طرد المستعمرين من البلاد .

كان « فان بواشاو » الذى سبق غيره من المثقفين فى الحصول على الدكتوراه فى الآداب خلال سنة ١٩٠٠ . يتمتع بنفوذ ضخم ، ويقود حركة ثورية قوية . وبعد أن فشلت المؤامرة التى دبرها للقبض على زمام السلطة فى منطقة « نجه آن » : شخص إلى الشمال حيث أخذ يتصل بالمثقفين فى « هيويه » ، ولم يلبث أن تمكن من توسيع دائرة نشاطه الثورى : فاتصل بعدد كبير من المثقفين فى المناطق الوسطى والجنوبية . وفى سنة ١٩٠٤ استطاع أن يجمع كل أنصاره ومريديه فى مدينة « كوانج ثام » حيث أنشأوا جمعية أطلقوا عليها اسم « هوى دوى تان » أى « رابطة التجديد » .

وكانت تلك الجمعية تعمل بهمة ونشاط فى كثير من أنحاء البلاد ، وطفقت توفد كثيرين من شبانها إلى الخارج للدراسة . وفى اليوم الرابع من فبراير سنة ١٩٠٥ سافر « فان بوا شاو » إلى اليابان حيث التقى بعدد من الساسة اليابانيين . وفى شهر يوليو من العام نفسه عاد إلى فيتنام ليوفد عددا من الشبان إلى اليابان . وكان شديد الاهتمام بأن يضم ابنى الدكتور « ساك » إلى تلك البعثة ، بيد أنهما اعتذرا عن عدم الاشتراك فيها بحجة أن أباهما متغيب ، ولكن الحقيقة هى أنهما لم يتحمسا للفكرة . !

فلماذا رفض « ثانه » على الرغم من إعجابه الشديد بـ « فان بوا شاو » الذى كان يعد ثورياً من طراز فريد ؟

الجواب الوجيز هو أنه كان يعتقد أن هذه الرحلة لن تعود بالخير على بلاده ، يضاف إلى ذلك أنه لم يكن متحمساً للدراسة فى بلاد « الميكادو ».

وبعد سفر تلك البعثة بوقت قليل عاد « ثانه » مع أبيه إلى « هيويه » حيث كان الفرنسيون يعيشون عيشة كلها بذخ بينما كانت حال الشعب الفييتنامى تزداد سوءاً يوماً فى إثر يوم من جراء الضرائب الباهظة التى كانت سلطات الاستعمار تفرضها على الأهالى ، والتى أدت إلى خراب عدد كبير من العائلات .

ولم يكن المستعمرون الفرنسيون يجهلون أن الشعب يكرههم كراهية التحريم ، وكانوا يخشون أن يثور الفييتناميون عليهم فى أية لحظة .

وكان أول إجراء اتخذوه للحيلولة دون حدوث أية اضطرابات فى جنح الليل ، أن أصدروا أوامر مشددة بأن يحمل كل فرد مصباحاً إذا خرج من بيته ليلا ، وذلك بعد أن خلعوا الملك « ثان ثاى » فى سنة ١٩٠٧ ، وأجلسوا ابنه على العرش بدلا منه. وكانوا يلقون القبض على كل من يخالف تلك الأوامر ، ويعاقبونه بشدة وصرامة .

ومع أن المتخاذلين من المتعاونين مع سلطات الاستعمار كانوا يزدادون قسوة ووحشية وخاصة من كان منهم يشغل منصباً كبيراً ، فإن وطنية الشعب ازدادت اشتعالا . وكان « فان بواشاو » يبعث من اليابان برسائل يدعو فيها الشعب إلى النضال والثورة . وكان زميله وصديقه الثائر المثقف « فان شوترينه » لا يكف عن الكتابة إلى حكومة باريس مطالباً بالإصلاحات التى ينشدها الشعب .

وهاجم فى إحدى رسائله كبار الموظفين الفييتناميين المتعاونين مع سلطات الاحتلال قائلا :

« . . . إنهم يعتبرون بلادنا ضيعة كبيرة يتصرفون فيها على النحو الذى يحلو لهم ، ويعود عليهم بنفع شخصى جزيل . . إنهم أشبه بالشحاذين فى موقفهم حيال سلطات الاستعمار ، وهم لا يعرفون للكرامة وعزة النفس معنى . . . » .

واجتاحت البلاد موجة عارمة من الأفكار الجديدة ، وظهرت حركة ثورية جديدة باسم « حركة التجديد » راحت تدعو فى إلحاح شديد إلى اصطناع تقاليد جديدة منها : الشعر القصير بدلا من الشعر الطويل المعقود ، والسترة الغربية بدلا من القميص التقليدى ، واستهلاك المنتجات المحلية ، والقضاء على التقاليد البالية ، وفتح مدارس جديدة ، وإنشاء شركات تجارية .

وسرعان ما اشتدت « حركة التجديد » واتسع نطاقها . وتعاظم اندفاعها النضالى . وجعلت همها أن تشدد النكير على سلطات الاستعمار لتكرهها على خفض الضرائب ، والإقلاع عن اتخاذ الإجراءات التعسفية ضد المواطنين .

وانفجرت المظاهرات الأولى فى إقليم « كوانج تام » فى شهر مارس من عام ١٩٠٨ . وامتد لهيبها بسرعة كبيرة إلى معظم الأقاليم الوسطى .

وفى شهر أبريل تدفقت على « هيويه » عاصمة إقليم « ثواثيين » جحافل المواطنين قادمين من ستة أقاليم . وأقام رجال « حركة التجديد » عند أبواب المدينة مراكز خاصة لقص الشعور الطويلة ، وتقصير القمصان التقليدية . وتجمع المتظاهرون حول دار الحاكم ، وأحضروا معهم طعامهم المكون من الأرز والبقول . ورابطوا فى أماكنهم ثلاثة أيام بلياليها مطالبين الحاكم بخفض الضرائب .

وعندئذ عمدت السلطات الاستعمارية إلى إخراج الملك الصبى من قصره ، وطلبت إليه أن يتحدث إلى المتظاهرين ، ويحاول إقناعهم بالكف عن إثارة القلاقل . ولكن المتظاهرين ضربوا بكلام الملك عرض الحائط . وفى تلك الأثناء لزم الفرنسيون دورهم ، ولم يكن يرى فى الشوارع ظل أى أوربى . !

وفى اليوم الرابع بدأت حركة القمع ، إذ أطبقت قوات الحكومة على المتظاهرين المسالمين ، وراحت تطلق عليهم النار دون رحمة ، وإن هى إلا ساعة أو بعض ساعة ، حتى تحولت المنطقة إلى بركة من الدماء . وسالت الدماء بغزارة فى أقاليم أخرى .

ثم تتابعت الأنباء السيئة بسرعة : فشل المحاولة التى قام بها بعض الثوار لتسمم حامية هانوى ، وهجوم القوات الفرنسية على مدينة « ين ثى » التى كان يقيم فيها زعيم المقاومة الشهير « دى ثام » ، وانتحار الثائر الكبير « دانج تاى ثان » بعد أن طوقته قوات الاحتلال فى مدينة « ناجه

آن » ؛ ونجاح اليابان فى احتلال كوريا فى سنة ١٩١٠ .

وكان من جراء ذلك كله أن أظلمت الدنيا فى أعين كثير من الناس . بيد أن الأعمال البطولية التى كان يقوم بها رجال المقاومة ؛ والجرائم الوحشية التى كانت ترتكبها السلطات الحاكمة ، قوت فى نفس « ثانه » الشاب الرغبة فى العمل لإنقاذ البلاد .

ومن ثم أقالت السلطات الحاكمة الدكتور « ساك » من منصب نائب العمدة الذى كان يشغله فاختار لنفسه طريقاً فى الحياة . . .

واختار ابنه « ثانه » طريقاً آخر . . فالتحق بهيئة التدريس فى مدرسة « دونك ثانا » .



الفصل الثالث

الرحلة الكبرى

فى سنة ١٩١١ كانت مدرسة « دوك ثانا » لا تزال مفتوحة ، وكان التلاميذ يتعلمون فيها كتابة الحروف الصينية ، والفرنسية ، وكتابة اللغة الفييتنامية بالحروف اللاتينية . وفى صباح كل يوم كان المدرسون والتلاميذ يمارسون بعض الألعاب الرياضية على الطريقة اليابانية . وكان « ثانه » يدرّس اللغة الفرنسية ، وكتابة الفييتنامية بالحروف اللاتينية ، وكان يرتدى إذ ذاك الـ « بابا » وهو رداء فييتنامى جنوبى مكون من سترة وبنطلون واسع أشبه بالبيجاما ، ويقص شعره قصيراً ، ويقيم فى المدرسة نفسها ، وفى أيام الخميس والأحد كان يخرج للتريض دون أن يدرى أحد إلى أين ذهب .

وبعد انقضاء زهاء سبعة أشهر على انضمامه إلى هيئة التدريس فى تلك المدرسة التى كان مبناها يبدو وكأنه آيل للسقوط ، انتهى إلى المدرسين والتلاميذ فى أحد أيام شهر أكتوبر من العام نفسه — وكان يوم اثنين — إنه سافر فجأة دون أن يدرى أحد . فاستبد الأسى بنفوس التلاميذ لأنهم حرموا من أستاذ حى الضمير ، كان يشعرهم بأنه لا يدرّس لكى يكسب لقمة العيش ، وإنما كان يفعل ذلك لسبب آخر .

كان « ثانه » مأخوذاً ببطولة الحركات الوطنية ، وكان الألم يعصره عصراً لأن تلك الحركات فشلت . ولقد شعر إذ ذاك بأن كل الطرق أصبحت مسدودة ، وأن عليه أن يسافر إلى الخارج .

ولكن إلى أين ؟

كان للثورة الصينية التى اشتعلت فى سنة ١٩١١ صدى قوى عميق فى سائر أنحاء فييتنام . بيد أن المناضل الوطنى « فان شوترينه » الذى كانت « عصبة الدفاع عن حقوق الإنسان » قد تمكنت من حمل سلطات الأمن على إطلاق سراحه من غياهب السجن ، كان قد رحل إلى فرنسا .

ورأى « ثانه » أن يقتفى أثره ، ويزور بلاداً أخرى . وجعل همه الأول أن يدرب نفسه على قوة الملاحظة ، والفهم السليم قبل أن يتخذ أى قرار . كان يتجاهل نزوات الشباب ، وكانت الحماسة تقترن فى نفسه بالصبر ، والدعة ، والهدوء . وكان يقلب الأمور على كل جوانبها ، ويحسب حساب كل شىء قبل أن يقرر شيئاً ، ذلك أنه فطر على التأمل الطويل ، والتفكير العميق .

بيد أن السفر إلى فرنسا لم يكن يسيراً ، إذ كان عليه أن يذهب ، بادئ ذى بدء إلى سايجون حيث التحق بالمدرسة الصناعية الواقعة بين السوقين الجديدة والقديمة ، على مقربة من معبد « شتيس » . وكانت تلك المدرسة تعد طلبتها للعمل فى الملاحة البحرية وفى الترسانة .

وبعد أن أمضى « ثانه » ثلاثة أشهر فقط فى المدرسة لم يتعلم خلالها شيئاً يذكر عن آلات السفن ومحركاتها ، استطاع أن ينضم كمساعد طاه إلى طاقم الباخرة « لاتوش تريفى » التى كانت تقوم برحلات بين مينائى هايفونج ومرسيليا . . . وسافر دون أن ينبس بحرف لأحد !

وكان حافزه إلى السفر أنه لم يستطع أن يتحمل الأوضاع الاستعمارية فى بلاده ، وأنه كان يشعر برغبة عارمة فى تمكين شخصيته من الاحتكاك بالثقافات الأجنبية .

وهكذا بدأ حياة جديدة هى حياة عامل يقوم بأعمال مرهقة ، ويواجه ألواناً من التجارب المريرة ، والشدائد ، والمحن . . .

ولكن العمل كـ « مرمطون » على باخرة فرنسية تقل عدداً غير قليل من الموظفين الاستعماريين لم يكن الوسيلة التى تتيح له إعادة النظر فى

الرأى الذى كان قد كونه عن المجتمع الفرنسى !

لقد أنفق عامين على ظهر تلك الباخرة التى حملته ، وهو يتصبب عرقاً ، ويكاد يقتله الإرهاق ، إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط ، والموانئ الإفريقية الرئيسية : وهران ، ودكار ، وبور سعيد ، والإسكندرية ، حيث وقف على أوضاع سياسية واقتصادية شديدة الشبه بالأوضاع فى بلاده . وجمع المواد التى مكنته من وضع كتابه الأول « قضية الاستعمار الفرنسى » .

وعندما رست الباخرة « لاتوش تريفى » فى ميناء مرسيليا سمع الناس ينادونه « مسيو » لأول مرة فى حياته . . !

ولكنه لاحظ ، فى الوقت نفسه ، أن فى هذه البلاد المتحضرة فقراء ، وعاطلين ، وبائعات هوى ، على نحو ما كانت الحال فى فييتنام .

ومن مرسيليا سافر إلى ميناء الهافر حيث عمل خادماً عند أسرة فرنسية فترة من الزمن ، ثم انضم كـ « جرسون » إلى طاقم باخرة قامت برحلة طويلة مرت خلالها بكثير من البلاد الإفريقية ؛ ومن ثم استطاع أن يعرف الشئ الكثير عن الأحوال فى المستعمرات الفرنسية . فمن أسبانيا إلى البرتغال ، إلى الجزائر وتونس ، وبلاد إفريقيا الشرقية ، والكونجو . . .

كان يلاحظ فى كل مكان زاره الشعوب تئن تحت نير الاستعمار ، وتلقى من السلطات الاستعمارية معاملة ملؤها القسوة والوحشية ، والواقع أن ما سمعه وشاهده خلال تلك الرحلة الطويلة أتاح له فيما بعد الحجج المادية المفحمة التى مكنته من توجيه سلسلة من الاتهامات الخطيرة إلى الاستعمار .

وما أن انتهت تلك الرحلة حتى سافر إلى لندن حيث عمل كاسحاً للجليد فى إحدى المدارس ، و « عطشجيا » فى إحدى الورش ، ثم « مرمطوناً » فى فندق كارلتون مع الطاهى الشهير « إسكوفييه » .

وعلى الرغم من قسوة الظروف التى كان يعيش فيها ، والأعمال

المرهقة التى كانت تسند إليه ، فإنه لم يكف عن الدراسة . والتهام كل ما يصادفه من كتب ، وقراءة الصحف بدقة وعناية . رغبة منه فى الوقوف على آخر الأنباء عن تطور الموقف فى بلاده ، والتردد على الدوائر « الفابية »[1] الاشتراكية حيث كون فكرة دقيقة عن معنى الثورة .

وفى الوقت نفسه أثار نضال الشعب الأيرلندى فى سبيل التحرر والاستقلال اهتمام الرأى العام العالمى ، وكان مما أثر فى نفس « ثانه » أعمق تأثير إضراب الزعيم الإيرلندى « كوك » عن الطعام أربعين يوماً احتجاجاً على اعتقاله والزج به فى زنزانة أحد السجون .

وحين اندلع لهيب الحرب العالمية الأولى سافر إلى باريس . وزار عدة مدن أخرى فى فرنسا حيث وقف على معلومات مفصلة دقيقة عن الأساليب التى كان يتبعها الاستعماريون الفرنسيون فى الهند الصينية إبان الحرب ، وعن الحياة القاسية التى كان يحياها العمال الفرنسيون فى ذلك الوقت ، وعن حياة الجنود الفييتناميين فى فرنسا .

ثم غادر فرنسا إلى أمريكا ليدرس مقومات المجتمع ، وأساليب الحياة ، والمنظمات السياسية فى تلك البلاد الواقعة على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى . وهناك عرف أمراض الرأسمالية الأمريكية ؛ ووقف بنفسه على وحشية رجال المنظمة اليمينية العنصرية المعروفة باسم « كلوكلوكس كلان » ، وشاهد بعينيه البيض يذبحون الزنوج فى وضح النهار بلا شفقة أو رحمة ، ورأى العمال الأمريكيين ينظمون الإضرابات احتجاجاً على الحرب ، وللمطالبة بزيادة الأجور .

وبعد أن زار كل تلك البلدان استخلص من مشاهداته ، واتصالاته الشخصية ، نتيجة كبرى هى أن الاستعمار هو هو فى كل مكان ، أيا كانت جنسيته ، وأنه لا يدخر وسعاً فى سبيل استغلال الطبقة العاملة

---

(١) الفابيون : اشتراكيون معتدلون .

بوسائل أقل ما يمكن أن يقال فى وصفها إنها قاسية رهيبة .

وقد نشرت له صحيفة « لومانيتيه » الباريسية فى عددها الصادر يوم أول يونيو سنة ١٩٢٢ فصلا تحدث فيه عن مشاهداته فى تلك البلاد قائلا : « لقد أرادت الرأسمالية الاستعمارية أن تغطى بذاءة وبشاعة نظام الاستغلال القاتل . فخلعت على نفسها شعاراً هو : « الأخوة . والمساواة » . . .

وكان « نجوين تات ثانه » قد وطن العزم ، عندما رحل إلى الخارج ، على أن يعرف كيف يعيش الناس فى البلاد الأخرى حتى يتسنى له ، عند عودته ، أن يساعد بنى وطنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولكنه لم يجد الأخوة أو المساواة فى البلاد التى تزعم أنها متحضرة ، بل وجد الظلم ، والعسف ، والجور التى عرفها فى وطنه .

* * *

لقد قام « ثانه » بتلك الرحلة الطويلة ليدرس فى كتاب الحياة بحثاً عن الحقيقة ، وتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من المشقة والإعنات . . . كان قلبه عامراً بالحماسة ، ولكنه كان صفر اليدين لا يملك عقداً على نقد !

وكان كلما ازداد بعداً عن وطنه ، اشتد تفكيره فى مسقط رأسه . وأخيراً بعد أن رأى نفس الوجه غير الإنسانى للاستعمار والإمبريالية ، ولمس ما تنطوى عليه الديمقراطية البورجوازية من رياء ونفاق ، وصل إلى الحقيقة الكبرى التى كان يبحث عنها .

وحرى بالذكر أنه اتخذ لنفسه خلال تلك الفترة عدة أسماء أخرى نذكر منها « نجوين أى كوك » ، و « لى ثوى » ، و « فوونج صون نهى » و « ثاو تشين » و « تونج فان سو » . وكانت صحف الجبهة الديمقراطية الهند صينية ، التى تصدر باللغة الفرنسية تؤثر أن تسميه « لين » . . .

وأخيراً سمى نفسه « هوشى منه » وهو الاسم الذى احتفظ به حتى طواه الموت .

الفصل الرابع

مؤتمر فرساى . .
وبعده الشرارة الأولى . .

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها حتى عاد « نجوين تات ثانه » إلى فرنسا عندما انعقد مؤتمر « فرساى » فى الثامن عشر من شهر يناير عام ١٩١٩ . وأصدر الرئيس الأمريكى « وودرو ويلسون » تصريحه المشهور عن شروط الصلح وتقرير المصير . وقد أسرعت إلى باريس وقتئذ وفود تمثل عدة بلاد مغلوبة على أمرها نذكر منها أيرلندا ، والهند . والصين ، وكوريا ، والبلاد العربية .

وأصبح صوت الشعب الفييتنامى مسموعاً لأول مرة . . .

وكان الذى أطلق ذلك الصوت هو « نجوين أى كووك » ، الاسم الجديد الذى اتخذه « ثانه » لنفسه (١) . . .

والواقع أن « نجوين أى كووك » كان الفييتنامى الأول والوحيد الذى وقف فى باريس بشجاعة ليقدم مطالب بلاده وهو يواجه الاستعمار الجشع . وقد تقدم بتلك المطالب — بالنيابة عن عدد من المواطنين الفييتناميين — إلى مؤتمر « فرساى » ، والجمعية الوطنية الفرنسية ، والمنظمات الديمقراطية التقدمية الفرنسية ، واستطاع أن ينشرها فى صحيفة « لوبيبل » — أى الشعب — وهى لسان الحزب الاشتراكى الفرنسى ، كما طبعها فى كتيب وزعه على الجنود القادمين من الهند الصينية ، وعلى أفراد الشعب الفرنسى .

---

(١) أى « نجوين » الوطنى .

وكانت قائمة المطالب تتضمن ثمانى نقاط هى :

١ — العفو العام عن السجناء السياسيين الفييتناميين .

٢ — المساواة فى الحقوق بين الفرنسيين والفييتناميين ؛ وإلغاء « محكمة الجنايات » ، وهى أداة لاضطهاد الوطنيين الفييتناميين وتعذيبهم .

٣ — حرية الصحافة ؛ وحرية الفكر .

٤ — حرية عقد الاجتماعات .

٥ — حرية التنقل والسفر إلى الخارج .

٦ — حرية الالتحاق بالمدارس ؛ وفتح مدارس فنية ومهنية لأبناء البلاد .

٧ — إحلال القوانين محل المراسيم .

٨ — تعيين مندوب فييتنامى ليشترك مع الحكومة الفرنسية فى تسوية المسائل المتعلقة بمصالح الشعب الفييتنامى .

ومعروف أن مؤتمر « فرساى » أعار أذناً صماء إلى مطالب وأمنيات المستعمرات . ومما زاد الطين بلة أن الدول الاستعمارية استطاعت أن تهيمن على المؤتمر بسهولة ، ومن ثم سلمت فورموزا وتسنجتاو ، وهما فى صميم الأراضى الصينية ، إلى اليابان التى كانت إذ ذاك دولة استعمارية هى الأخرى . وكان من جراء ذلك المسلك الإجرامى من جانب الدول الاستعمارية أن ثارت ثائرة الشعب الصينى .

ومما لا ريب فيه على الإطلاق أن مؤتمر الصلح فى فرساى لم يكن سوى حلبة للمساومة تقاسمت فيها الدول الاستعمارية الغنائم فيما بينها .

ومع ذلك فقد أدى نشر مطالب الشعب الفييتنامى إلى استنكار عام لسياسة الاستغلال الفرنسية ، وجرائم الاستعماريين الفرنسيين ، وبذلك استطاع الشعب الفرنسى أن يعرف كل الحقائق .

وكانت نتيجة هذا كله أن بدأت الهيئات والمنظمات الديمقراطية الفرنسية ، ومعها الشعب الفرنسى ، تهتم كل الاهتمام بالحركة الثورية الفييتنامية ، وبممثلها المناضل الشجاع « نجوين إى كووك » .

وأدرك « نجوين إى كووك » من جانبه ، بطريقة أعمق . أن مواجهة الاستعمار لا يمكن أن تكون قوية فعالة إلا عن طريق النضال الثورى حتى النهاية .

ومنذ ذلك الوقت دخل « نجوين أى كووك » مضمار السياسة ، رافعاً العلم المعادى للاستعمار والإمبريالية .

* * *

كانت ثورة أكتوبر الروسية قد أرعدت فى سنة ١٩١٧ على نطاق واسع جداً ، وأدت إلى إنشاء أول دولة بزعامة الطبقة العاملة ، وكان لنظرية لينين عن المسألة القومية والمسألة الاستعمارية تأثير قوى ، بعيد المدى.

ويرجع الفضل إلى « لينين » وإرشاداته وتوجيهاته فى إنشاء « الدولية الثالثة » التى قضت على الطابع الخطر لعناصر « الدولية الثانية » فى الحركة العمالية الدولية ، مما أدى إلى التعجيل فى تأسيس الأحزاب الشيوعية فى عدد من البلاد وفى مقدمتها فرنسا التى اشترك فى إنشاء حزبها الشيوعى « مارسيل كاشان » و « كوننيرييه » . وقد قام « نجوين » بدور فعال فى هذا النضال .

وحين عقد الحزب الاشتراكى الفرنسى مؤتمره فى مدينة « تور » بين يومى ٢٥ و ٣٠ ديسمبر من سنة ١٩٢٠ ، أعرب « نجوين » عن ترحيبه الشديد بإنشاء الحزب الشيوعى الفرنسى قائلا إن هذا الحزب هو الحزب الوحيد الذى صمم على النضال فى سبيل تحرير المستعمرات .

وقد انقسم الحزب الاشتراكى الفرنسى فى ذلك المؤتمر ، إذ أسهم أغلب الأعضاء فى إنشاء الحزب الشيوعى الفرنسى ، وانضم هذا الحزب إلى « الدولية الثالثة »[١] . أما الأقلية فقد احتفظت باسم « الحزب

---

(١) « الدولية الثالثة » - الكومنترن - أنشئت فى موسكو عام ١٩١٩ لنشر المبادئ الاشتراكية الماركسية فى العالم .

الاشتراكى » وآثرت الانضمام إلى « الدولية الثانية » .

وعلى هذا النحو كان « نجوين إى كووك » فى مقدمة الذين اشتركوا فى عضوية الحزب الشيوعى الفرنسى ، وفى الوقت نفسه كان أول فييتنامى يأخذ بأسباب الشيوعية .

وكان « نجوين » ، خلال الفترة التى قضاها فى فرنسا ، يحيا حياة كلها قسوة : إذ كان ينفق فترة الصباح فى تحميض الأفلام وتكبير الصور الفوتوغرافية ليكسب لقمة العيش ، أما بقية النهار فكان يبذل فيها نشاطاً سياسياً . ويتردد على شتى المنظمات ، ويؤلف الكتب ، ويكتب المقالات للصحف . ويناضل نضالا مريراً من أجل الشعوب التى كانت تعانى الأمرين من الاستعمار .

وقد وفق خلال سنة ١٩٢١ ، بمساعدة الحزب الشيوعى الفرنسى ، إلى تكوين « عصبة البلاد الخاضعة للاستعمار » فى « باريس » ، التى شملت كل الحركات الثورية فى المستعمرات الفرنسية . وكتب « نجوين » منشور العصبة الذى تضمن نداء إلى الشعوب المغلوبة على أمرها هذا نصه :

« تطبيقاً للمبادئ الماركسية ، يجب على الشعوب أن تحرر نفسها . إن الغرض من تكوين « عصبة البلاد الخاضعة للاستعمار » بمساعدة الرفاق الذين يتعاطفون مع أمانينا ، هو مساعدتكم على أن تحرروا أنفسكم بأنفسكم . إن « العصبة » تضم ممثلى الشعوب الخاضعة للاستعمار الذين يدركون الحاجة إلى الثورة ، والذين يقيمون فى فرنسا » .

وقد انتخبت « العصبة » لجنة تنفيذية ، وأصدرت صحيفة أسبوعية أسمتها « لاباريا » ، وكان « نجوين » يديرها ، ويشرف على تحريرها ، ويدون حساباتها ، ويشترك بنفسه فى توزيعها !

ونجحت « العصبة » وصحيفتها « لاباريا » بكشفهما النقاب عن كل دقائق وتفاصيل الأعمال الاستغلالية التى كان يضطلع بها الاستعمار الفرنسى ، فى الظفر بتأييد العمال الفرنسيين ، وجانب كبير من الشعب

الفرنسى نفسه . وفى إحياء وتعزيز الضمير السياسى لشعوب المستعمرات الفرنسية .

وكان لصحيفة « لاباريا » أثر قوى فى تعبئة شعب فييتنام ، وفى لم شمل الفييتناميين المقيمين فى فرنسا بعد أن كانوا مشتتين ، وأدى ذلك إلى تكوين عدة جمعيات فييتنامية فى فرنسا ، نذكر منها « جمعية الطهاة والجرسونات » و « جمعية الصداقة » و « جمعية التعاون المتبادل » .

وشرع آنئذ البحارة الفييتناميون والفرنسيون يحملون أعداد صحيفة « لاباريا » سراً إلى الهند الصينية حيث تعاظم نفوذها بسرعة مذهلة . ويمكن أن يقال إن الشعب الفييتنامى حصل على الجانب الأكبر من معلوماته عن الاتحاد السوفييتى والماركسية اللينينية عن طريق تلك الصحيفة .

وكانت العناصر التقدمية فى الطبقة العاملة التى ناصبت الاستعمار الفرنسى العداء ، تتلهف على التهام مواد الصحيفة ، والتعليق على ما فيها من مقالات وأبحاث وتحقيقات .

ولم يلبث اسم « نجوين أى كووك » أن أصبح قوة محركة حافزة دافعة ، وعلماً يسير خلفه الفييتناميون وكلهم ثقة فى قدرتهم على النضال المجدى .

وقد أماط « نجوين أى كووك » فى المقالات التى كان ينشرها فى فى « لاباريا » ولا سيما فى كتابه « قضية الاستعمار الفرنسى » ، اللثام عن جرائم الاستعماريين الفرنسيين ، بعديد من الحجج القوية الدامغة ، والوثائق المثيرة التى تحض القراء على العمل .

وفضح « نجوين » جرائم الاستعمار فى القارة الإفريقية بمقالات مستفيضة نجتزئ منها بما يلى :

« أصيبت إحدى المناطق الإفريقية بمجاعة ، ورأى الأهالى أنفسهم مكرهين على أكل الحشائش وجذور النباتات ، وكان أرباب الأسر

يموتون الواحد بعد الآخر لأنهم حرموا أنفسهم من الأكل حتى يوفروه لأولادهم . وكان الأطفال يرضعون من أثداء أمهاتهم دون جدوى من جراء جفافها . ومع ذلك فقد كان الأهالى يضطرون إلى دفع الضرائب للحكومة : وإذا عجزوا عن ذلك عوملوا بقسوة ووحشية حتى يتنازلوا عن بيوتهم وأراضيهم وحدائقهم ، ويفروا إلى المناطق الجبلية والاختفاء فى المغارات . . . فما كان من الحكومة إلا أن عمدت إلى سد فتحات المغارات بأغصان الأشجار وملء المغارات نفسها بالدخان ليموت هؤلاء الناس مختنقين . . . » .

وكتب فصلا عن العذاب الذى يعانى منه الزنوج الأمريكيون الأمرين . قال فيه :

« معروف كل المعرفة أن الجنس الأسود فى مقدمة أجناس الأسرة البشرية التى تعيش فى جو كله ضغط واستغلال . ومعروف كل المعرفة أن انتشار الرأسمالية واكتشاف العالم الجديد « أمريكا » أديا إلى نتيجة مباشرة هى بعث الرق والعبودية . . . وهو أمر يندى له جبين الإنسانية » .

ورأى « نجوين » أن يفضح جرائم الاستعماريين الفرنسيين وأذنابهم فى فيتنام آنئذ . فكتب يقول ، بعبارات ملؤها الإلحاح :

« من الخطأ أن يقال إن الهند الصينية ، التى يبلغ تعداد سكانها عشرين مليوناً من الأهالى الذين يعانون بشدة من الاستغلال ، أصبحت مستعدة للثورة ، ولكن من الخطأ كذلك أن يقال إن الهند الصينية ترغب عن الثورة ، وإنها راضية بالنظام الذى وضعه الاستعماريون وجلادوهم ».

وأضاف : « الحقيقة هى أن شعب الهند الصينية لا يملك وسيلة واحدة للعمل . أو للعلم والمعرفة ، فالصحافة ، والاجتماعات والجمعيات ، والتنقل ، كلها يحرمها القانون . . . وامتلاك صحف أو مجلات تتضمن أفكاراً تقدمية بعض الشىء ، أو حمل صحيفة الطبقة العاملة الفرنسية ، يعد جريمة . والصحف الرجعية التى تصدرها السلطات تكمل

ـــ مع الخمر والأفيون ـــ إجراءات التعويق التى تتخذها الحكومة . كذلك تستخدم السجون والمقاصل لمحاولة القضاء على الأفكار الثورية » .

ويقول : « والمعتقد أن هذا القطيع البشرى المسمم أخلاقيا وبدنياً يمكن أن يظل ، إلى الأبد ، ضحية للرأسمالية . . . ولكن . . كلا . . إن شعب الهند الصينية لم يمت ، بل هو حى يرزق ، وسيظل حيا يرزق إلى ما لا نهاية . . . ذلك أن عملية التسمم المنتظمة التى تعمد إليها العصابة الرأسمالية الاستعمارية لا يمكن أن تشل حيوية شعب الهند الصينية وتفكيره الثورى . إن الرياح التى تهب من روسيا التى أصبحت بلد العمال ، ومن الصين الثورية ، والهند المناضلة ، هى بمثابة ترياق يزيل كل أثر للسم فى الهند الصينية . إن أهالى تلك البلاد لا يتعلمون بواسطة الكتب والخطب ، ولكنهم يتلقون العلم بوسائل أخرى . . . إن أساتذتهم الوحيدين هم الفقر ، والقمع الهمجى ، والآلام » .

كذلك يقول : « إذا غض الاشتراكيون الطرف عن التعليم ، فإن الرأسماليين الاستعماريين ، والبورجوازيين المحليين ، وكبار الموظفين الخونة ، سيمضون فى هذا السبيل بوسائلهم الخاصة . لقد سجل شعب الهند الصينية تقدماً يدخل فى عداد المعجزات ، وسيبرهن ، فى أول فرصة تسنح له ، على أنه جدير بأساتذته . فهو وإن كان يبدو سلبيا فى مظهره ، فإن نفوس أفراده مفعمة بقوة كبيرة ستنفجر بعنف عندما تحين الفرصة . وعلى الطلائع أن تهيئ الجو لهذه الفرصة فى أقرب وقت . لقد مهدت الجرائم الاستعمارية التربة ، ولم يبق أمام الاشتراكيين إلا أن يبذروا البذرة الثورية » .

ولم يكتف « نجوين » بتوجيه أقوى وأخطر الاتهامات إلى الاستعمار ، بل صب جام غضبه كذلك على الإقطاعيين ، والخونة الذين يستخدمهم الاستعمار كجلادين فى المستعمرات .

وحين زار « خاى دينه » إمبراطور الهند الصينية فرنسا خلال تلك

الفترة . وقضى ساعات فى زيارة معرض مرسيليا . كتب « نجوين » مسرحية صغيرة بعنوان « التنين المصنوع من الخيزران » ، كما كتب عدة مقالات فضح بها طبيعة تلك الدمية المتعفنة الفاسدة .

ثم بعث إلى الإمبراطور برسائل ملؤها السخرية اللاذعة قال فيها :

« إلى جانب بضعة جياد فى ميدان السباق بلونشان . والفتيات الجميلات فى الأوبرا . . . هل رأيت شيئاً من الأرض الفرنسية الساحرة أثناء رحلتك الدراسية ؟ »

« هل لمست مدى تعلق الشعب الفرنسى بالعدالة ، والحرية والعمل ؟ هل لمست مشاعر الأخوة التى تنطوى عليها نفوس الفرنسيين ، وحبهم الشديد للسلام ؟ . . . هذا الشعب الذى قام بثورة ليتحرر ، وحرر نفسه من نير الملوك ليصبح هو سيداً ! »

« ماذا رأيت غير المقالات التى عقدها الكتاب المأجورون لإغراقك بعبارات الإطراء والمديح ؟ . وماذا سمعت غير الخطب التى ألقيت تحية لك وتكريماً ؟ هل تحدث إليك أحد عن باستير ، وفيكتور هوجو ، وأناتول فرانس ؟ هل سمعت عن تصريح حقوق الإنسان والمواطن ؟ هل رويت لك قصة الثورة الخالدة ؟ »

« بعد الانفعالات العنيفة التى انتابتك أثناء العرض العسكرى غير المؤذى الذى اشتركت فيه الدبابات والمدافع الضخمة ، غزا الحنين قلبك فقررت العودة إلى الوطن ! »

* * *

وفى شهر يونيو من عام ١٩٢٣ وصل « نجوين » إلى موسكو ليشترك فى « المؤتمر الدولى للفلاحين » الذى عقد يوم ١٦ أكتوبر ، وانتخب عضواً فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر ممثلا للفلاحين فى المستعمرات . وقد ترجم إلى اللغة الفيتنامية المنشور الذى أصدره المؤتمرون ، وبعث بالترجمة إلى مواطنيه الفلاحين الفيتناميين .

وعلى أثر وفاة « لينين » عقدت « الدولية الشيوعية » مؤتمرها الخامس فى موسكو . وظل المؤتمر منعقداً من يوم ١٧ مايو حتى يوم ٨ يوليو من سنة ١٩٢٤ . وحضر « نجوين » ذلك المؤتمر بوصفه ممثلا للحزب الشيوعى الفرنسى ، والبلاد الرازحة تحت نير الاستعمار .

وقد أدلى فى ذلك المؤتمر ببيان ندد فيه بسياسة الاستغلال والضغط العنيف الوحشى التى تطبق على الفلاحين فى المستعمرات ، وبسط مقترحات إيجابية فعالة تدور حول المسألة الاستعمارية . واختتم بيانه قائلا :

« الفقر والجوع يتزايدان فى كل المستعمرات الفرنسية ، والغضب والحقد يغليان . والأوضاع السائدة فى صفوف فلاحى المستعمرات أصبحت مهيأة للثورة . لقد هب الفلاحون فى عديد من المستعمرات ثائرين فى كثير من المناسبات : بيد أن ثوراتهم أخمدت بعد أن سالت الدماء غزيرة . ولئن كان الفلاحون يلزمون الصمت ، فإن مرجع ذلك إلى أنهم يفتقرون إلى التنظيم ، وإلى قادة وزعماء . وواجب "الدولية الثالثة" أن تساعدهم على أن ينظموا أنفسهم ، وأن تمدهم بما هم فى حاجة إليه من "كادرات (١)". وترشدهم إلى الثورة ، وإلى التحرر » .

* * *

كان « نجوين » قد أدرك بوضوح منذ أمد بعيد ، الدور الذى يقوم به الفلاحون فى البلاد الخاضعة للاستعمار ، وهى بلاد زراعية كانت متخلفة إلى أبعد حد عن ركب الحضارة . ولهذا السبب جعل كل همه أن يلح على « الحزب الشيوعى » فى أن ينظم صفوف الفلاحين ، ويتولى قيادتهم قائلا إن ذلك عامل حاسم لنجاح الثورة فى البلاد .

ولقد كتب « نجوين » ، أثناء إقامته القصيرة فى الاتحاد السوفييتى ، مقالات عديدة نشرتها له الصحف ، وفاض ذهنه الجبار بكتابين هما

---

(١) « الكادر » - Cadre - هو الموجه والمرشد السياسى .

، الصين والشباب الصينى » و « الجنس الأسود » . وقد ندد فيهما بالنظام الإمبريالى الفوار بالقسوة والجور ، وكشف النقاب عما يعانيه أهالى المستعمرات من ظلم ، وبؤس ، وشقاء .

والواقع أن الطريق السياسى الذى سلكه « نجوين » كان مكوناً من عدة مراحل :

فقد بدأ بالوطنية الصادقة الخالصة ، ومنها انتقل إلى الاشتراكية ، فالدولية البروليتارية ، وأخيراً بلغ اللينينية .

ولقد كتب فيما بعد فصلا بعنوان « الطريق المؤدى إلى اللينينية » قال فيه ما يأتى :

« فى بداية الأمر جعلتنى الوطنية — لا الشيوعية — أضع ثقتى فى اللينينية و « الدولية الثالثة » . ثم أدركت ، تدريجيا ، أثناء النضال ، بعد أن درست الماركسية اللينينية وطبقتها ، أن تحرير الأمم المغلوبة على أمرها والشعوب الكادحة فى سائر أنحاء العالم من العبودية لا يمكن أن يتحقق إلا بالاشتراكية والشيوعية » .

ولقد أثبت « نجوين » ، بما بذله من جهود عملية مثمرة ، أنه مناضل بارز فى الحركة الثورية الدولية ، إذ لم يقتصر اهتمامه على إنقاذ الشعب الفييتنامى من البؤس ، بل امتد إلى الشعوب الأخرى التى أذاقها الاستعمار ألواناً من البؤس والذل والعبودية .

ولا ريب فى أن مؤلفاته ومقالاته تعد أحكاماً غاية فى القوة والبراعة ضد الأمبريالية ككل ، ودروساً ملهمة كان لها أعمق الأثر فى نفوس شعوب المستعمرات .

ولا يرجع احترام الشعوب الآسيوية والإفريقية لـ « نجون » الذى أصبح اسمه بعد ذلك « هو شى منه » إلى أنه وفق فى توفير الحوافز التى دفعت الشعب الفييتنامى إلى الثورة ، وإلى شن « حرب المقاومة » التى أصبحت

حديث الناس فى كل مكان ، والتى حطمت جانباً من الصرح الاستعمارى وفتحت جبهة فى مؤخرة الإمبريالية : بل يرجع كذلك إلى النشاط الجم الذى بذله فيما نظمه من حركة نضالية واسعة للأخذ بيد الشعوب المهيضة الأجنحة ، معتبراً نفسه واحداً من أفرادها ، وزميلا لكل من كافح فى سبيل انتشالها من حياة الضيم التى فرضها عليها الاستعمار عنوة واقتداراً .

الفصل الخامس

فى باريس

إن الأعوام الخمسة التى قضاها « نجوين أى كوك » فى باريس ملأت نفسه بالتبرم ، وأوغرت صدره غيظاً من فرنسا ، ولكنها — فى الوقت نفسه — ربطته مع تلك البلاد بصلات قوية دامت حتى طواه الموت[1] . . .

لقد ذاق هناك طعم الفقر المدقع ، وعرف قيمة الصداقة والأخوة ، وعانى من المضايقات السياسية ، وأفاد من المواجهات السياسية ، واكتشف حضارة رأى لزاماً عليه أن يدرس أبعادها ، ويفضى إلى حقيقة مقوماتها . . . وتعلم كيف يعيش فى صميم الحياة ، ومن ثم عرف أهمية الاشتغال بالسياسة ، وأدرك قيمة الثورة .

كان يقوم بأعمال بسيطة مختلفة ، منها « الرتوش » الفوتوغرافى فى الغرفة المتواضعة التى كان يتقاسمها مع صديقه « فان ڤان تروونج » ، بمبنى قديم فى شارع « جوبلان » رقم ٦ ، ثم فى الغرفة التى كان يعيش فيها مع عدد من مواطنيه بحارة كومبوان رقم ٩ .

وقد نشرت صحيفة « فى أوفريير » أى الحياة العمالية ، فى ذلك الوقت ، إعلاناً صغيراً هذا نصه : « إذا أردت الاحتفاظ بتذكار حى لذويك فاعهد بما لديك من صور إلى نجوين أى كوك لكى يجعلها دقيقة

---

(١) راجع كتاب " هوشى منه " تأليف " جان لاكوتير " ص ١٧ والصفحات التالية .

بالرتوش . . . صورة جميلة ، وإطار جميل بخمسة وأربعين فرنكاً ! » .

بيد أن ذلك الإعلان لم يعد عليه بفائدة تذكر ، ومن ثم ظل لا يملك عقداً على نقد . . .

ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لشاب نذر حياته للعمل الوطنى : ووطن نفسه على إنقاذ بلاده من ذل الاستعمار ؟

لقد أتاح له ذلك متسعاً من الوقت للتردد على الدوائر السياسية . وإقناع عدد من الفيتناميين المتبرمين بالأوضاع فى بلادهم بالالتفاف حوله ، ودراسة الاشتراكية ، والقراءة ، والكتابة .

وقد تم أول اتصالاته السياسية فى مكتبة صغيرة كان يملكها مناضل يدعى « هاسفيلد » . ويقال إن الروائى العملاق ليون تولوستوى كان يتردد على تلك المكتبة .

وفى تلك المكتبة تعرف على عدد من كبار النقابيين الثوريين مثل « مونات » و « بورديرون » ، وببعض الداعين إلى السلام مثل « مارسيل كابى » .

ورحب به « فيان كوتيريبه » ، رئيس تحرير صحيفة « لومانيتيه » ، لسان حال الحزب الشيوعى الفرنسى ، ونشر له بضعة فصول تحت عنوان « ذكريات منفى » ، ودعاه « جان لونجيه» ، حفيد كارل ماركس للكتابة فى صحيفة « لوبوبيلير » ، ولم يلبث أن انضم آنئذ إلى « رابطة الشباب الاشتراكى » .

وحدث فى سنة ١٩٥٣ أن نشرت إحدى المجلات الفرنسية المناهضة للشيوعية فصلا بعنوان « هوشى منه . . . اللغز» كتبه فيتنامى يدعى « هوفان تاو » كان يعرف أشياء كثيرة عن حياة « نجوين » فى باريس ، وكان دائم النقد لمسلكه السياسى .

واستهل « هوفان تاو » فصله قائلا : « كان هوشى منه إذ ذاك فى شمك الظل ، ولم يكن يرى إلا متأبطاً كتاباً . . . وكان شديد الاهتمام بقراءة

مؤلفات إميل زولا ، وأناتول فرانس ، وشكسبير ، وتشارلز ديكنز ، وفيكتور هوجو ، ورومان رولان . وكانت تربطه صداقة قوية بمناضل نقابى فوضوى يدعى « جول رافو » قدم من سويسرا حيث كان قد عمل مع لينين وزينوفييف . . . ومن ثم كان بالنسبة ل « نجوين » مصدراً لا ينفد للمعلومات ، والدراسات ، ، والنصائح ، والنكت . . .

وظل « رافو » فترة من الزمن يعاون « نجوين » ويرشده ، ويوجهه ، ويقدمه إلى المناضلين الثوريين ، وكبار المفكرين التقدميين ، ومكنه من الاتصال بصحيفة « لاڤى أوفريير » ذات التقاليد الثورية الحية .

ثم قال « هوفان تاو » :

« لم يكن يكسب لقمة العيش إلا بشق النفس . . . كان ضعيف البنية ، قصير القامة ، ذا وجه معبر ، ونظرات هادئة تتجلى فيها تلك الشعلة التى تضىء عادة أعين أولئك الذين تستهويهم فكرة . . . إنه شاب شديد الحساسية ، سريع التأثر » .

وكان من أثر انضمامه إلى عضوية « رابطة الشباب الاشتراكى » ، وتعاونه مع « لوبوبيلير » و « لومانيتيه » ومجلة « لاڤى أوفريير » ، وحواره مع رئيس تحريرها « جاستون مونموسو » ذلك النقابى الفوضوى الذى كان يسدى إليه النصائح الصحفية . . . كان من أثر هذا كله أن اتصل به « فويوفتش » أحد أعضاء جهاز « الدولية الثالثة » ، وكان لذلك اللقاء تأثير قوى فى شخصية « نجوين » ، لأنه طفق بعدئذ يفكر فى نصائح « فويوفتش » كلما أراد أن يتخذ قراراً .

وفى إحدى أمسيات سنة ١٩٢٠ كان الكاتب اليابانى الشاب « كيوكوماتسو » يحضر اجتماعاً فى قاعة « واجرام » . .. وإذا به يفاجأ بشخص يربت على كتفه ويسأله :

— هل أنت صينى أم من الهند الصينية ؟

فأجابه : « بل أنا يابانى » .

وبعد أن أصغيا باهتمام إلى خطاب لـ « مارسيل كاشان » التقيا فى أقرب مقهى ، وراح « نجوين » يتحدث فى قوة واندفاع عن الآلام التى يعانيها وطنه ، ثم التقيا مرات أخرى ، بل شوهدا يسيران فى شوارع باريس لا يلويان على شىء . ويتحدثان عن مستقبل آسيا ومصيرها .

وبعد بضعة أشهر توجه ضابط البوليس الكبير « أرنو » الذى كان مشرفاً على رعايا الهند الصينية فى باريس ، إلى إحدى القاعات ليستمع إلى محاضرة للأستاذ « فيليسيان شالى » الذى قرر ، بعد رحلة إلى الشرق الأقصى ، أن يبذل قصارى جهده للدفاع عن حق الهند الصينية فى التحرر والاستقلال . ولمح « أرنو » عند مدخل القاعة شاباً ذا جبهة ضخمة ، وحركات عصبية ، يوزع منشورات تتضمن حملة غاية فى العنف على الاستعمار ، وكان قد سمع أناساً يتحدثون عن « نجوين أى كووك » ، فلما قال له أحد مساعديه إن هذا الشاب الثائر هو « نجوين » نفسه ، طلب أن يلتقى به . . .

والتقى رجل البوليس والشاب الثورى فى مناسبات عديدة خلال عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠ .

ولئن لم يعرف أحد شيئاً عن رأى الشاب فى رجل البوليس ، فإن « أرنو » كان يتحدث دائماً فى لهجة لا تخلو من الإعجاب عن ذلك الشاب الثائر المتحمس الذى كان يتحدث إليه عن قريته ، وأسرته ، ووطنه ، ويقول له بعبارات ملؤها التأثر إن أباه « نجوين سينه هوى » ذاق صنوفاً من الظلم والعسف ، ثم يرميه بنظرة نارية ويسأله « كيف تريد أن أغفر لفرنسا جرائم كهذه ؟ » .

وقال « أرنو » بعدئذ لـ « البير سارو » وزير المستعمرات :

— يجب أن تتعرف على هذا الرجل .

فقال الوزير الذى لم يقتنع برأى رجل البوليس :

— إن « نجوين أى كووك » لا وجود له . . .

ثم أضاف بلهجة ملؤها الغضب :

– إنه مجرد اسم مستعار اتخذه « فان شوترينه » لنفسه .

ولكن مدير مكتب وزير المستعمرات قرر ، بعد تردد طويل ، أن يستقبل « نجوين » لكي يتأكد من شخصيته . وقد اغتنم رجال البوليس تلك الفرصة فالتقطوا لـ « نجوين » صورة احتفظوا بها طويلا فى سجلاتهم . . . وهو يبدو فيها هش القوام ، يتحرك فى غير اتزان . وقد وضع قبعة صغيرة على سمت رأسه . إن من يراه فى تلك الصورة يخيل إليه أنه أشبه بشخص فقد شيئاً وراح يبحث عنه فى غير مبالاة تذكر . . .

وهنا نترك الكلمة لصديقه ورفيق شبابه « بوى لام » :

نشأت فى ضاحية « كام » بميناء هايفونج التى كان معظم سكانها من البحارة الذين سافروا كثيراً ، وزاروا بلاداً عديدة ، وتضاعف عداؤهم للاستعمار من جراء العسف الذى كانوا يعانونه على أيدى الاستعماريين ، وكنت ، أنا بدورى ، أمقت الاستعمار ، وأهوى السفر منذ صغرى .

وعند ما بلغت الخامسة عشرة انضممت كبحار إلى طاقم باخرة بضائع كانت مبحرة إلى فرنسا . وقد تنفست الصعداء عند ما رفعت الباخرة « الهيلب » – كما يقول الفرنسيون – وتوغلت فى المحيط . . . أخيراً . . . انتهت حياة البؤس والذل . ! لقد سافرت دون أمل فى العودة ! . . .

وفى مرسيليا ألفيت نفسى فى جو ملؤه الثورة . . . كان ذلك خلال الأيام الأخيرة من عام ١٩١٩ . وكان الناس ما برحوا يتحدثون عن حركة التمرد التى حدثت فى البحر الأسود قبل زهاء عام ، وكأنها لم تحدث إلا قبل أربع وعشرين ساعة فقط ! لقد انفعلت لقصة أولئك البحارة الفرنسيين الذين رفعوا العلم الأحمر تحية منهم للثورة البروليتارية . . . وكان من أثر ذلك أن استشاط « كليمنصو » رئيس الوزارة الفرنسية آنئذ ، غضباً ، وقرر تطهير الأسطول الفرنسى من أمثال أولئك المتمردين ، فما كان منهم إلا أن التحقوا بالسفن التجارية . . .

واكتشفت فى ذلك الوقت الثورة الاشتراكية ، ولينين . وقوة البروليتارية ووجدت نفسي – بطبيعة الحال – مهتما كل الاهتمام بالاتحادالسوفيتى .

ثم كان هناك حدث آخر أثر فى نفسي ومجرى حياتى كل التأثير . . . حقا . . . لقد حدثت فى ذلك العام أمور ذات بال ! .

ففى شهر يونيو بينما كان الأمبرياليون يتقاسمون الكعكة الاستعمارية حول مائدة المفاوضات فى فرساى ، ظهر فييتنامى يدعى « نجوين أى كووك » ليطالب ، دون صياح ، بحق تقرير المصير لفييتنام . . . كان لذلك وقع الصاعقة فى نفوس الاستعماريين . . . أما بالنسبة إلينا فإن الحركة التى قام بها هذا الفييتنامى كانت أشبه برعد الربيع الذى تعقبه الأمطار اللازمة لنمو البذور ! .

لقد فرحنا فرحاً لا يمكن وصفه . . . إن كل فييتنامى غادر بلاده سعياً وراء لقمة العيش كان وطنياً صادقاً يتطلع إلى الاستقلال والحرية . . بيد أن ما فعله « نجوين أى كووك » فى باريس كان عملا عظيماً حقا . . . لقد رفع الناس قبعاتهم احتراماً له لأنه أصر على أن يسترد الشعب الفييتنامى حقوقه السليبة ، وأصبح اسمه على لسان كل فييتنامى . . .

. . . وبعد أن قمت بعدة رحلات بحرية عدت إلى مرسيليا فى شهر يوليو من عام ١٩٢٢ . . . وكان من حسن حظى أن أعطانى نقابى فرنسى بضعة أعداد من صحيفة « لاباريا » التى كان يصدرها « نجوين أى كووك » . التهمت تلك الأعداد جميعاً ، ثم أعطيتها لرفاقى حتى يفيدوا هم أيضاً منها .

لقد انفعلنا لتلك المقالات القصيرة أيما انفعال ، وكانت أعيننا تغرورق بالدموع ونحن نقرأها . . . كان « نجوين » يدفعنا إلى العمل دفعاً ، ويحثنا على النضال ، ولكننا لم نكن ندرى كيف نفعل ذلك . وفجأة قررنا أن نلتقى به . . . ووقع اختيار الرفاق على أنا لأكون رسولهم إليه .

سافرت إلى باريس على الفور ، واتجهت إلى « سوق البطاركة »

فى الحى السادس ، ودخلت مكتب صحيفة «لاباريا» ، وانتظرت . . . انتظرت طويلا . وعند ما يئست من وصول « نجوين أى كووك » سألت اثنين من الإفريقيين ، كانا يعملان فى المكتب عن عنوانه ، فذكرا لى أنه رقم ٦ بشارع جوبلان ، فى الحى الثالث عشر . وذهبت إلى هناك وقلبي ينبض بشدة . ما هى طلعة « نجوين أى كووك » ؟ وكيف سيستقبلنى ؟

ورفعت يدى ، وطرقت الباب . . . ثم سمعت وقع خطوات تدنو . . . وفتح الباب ، فألفيت نفسى واقفاً أمام رجل تتراوح سنه بين الثلاثين والثانية والثلاثين . نحيف القوام ، وعلى وجهه ابتسامة هادئة . وسألنى :

— من الشخص الذى تبحث عنه ؟
— إنى أبحث عن . . . مسيو نجوين أى كووك .
— أنا نجوين . . . ادخل ! .

وهكذا واجهت « نجوين أى كووك » للمرة الأولى فى حياتى ، وكنت آنئذ شاباً فى العشرين من عمرى . . . وأذكر أننى تسمرت فى مكانى لحظات ، ورحت أدقق النظر فيه لأعرف ما إذا كان هذا الرجل الذى فتح لى الباب ، والذى قدم لى نفسه ، هو « نجوين » حقاً . . .

وسرت خلفه إلى غرفته ، بعد أن زال كل أثر لاضطرابى ، واستعدت هدوئى . . . كانت شقة لشخص واحد ، مؤثثة بطريقة غاية فى التواضع . . . فى ركن من الغرفة منضدة تختفى تحت أكوام من الكتب ، والصحف والمجلات . وبالقرب منها سرير من الحديد ، ودولاب صغير . . . لا شيء غير هذا . . . ولكنها كانت نظيفة ، ومريحة . . .

وسألنى « نجوين أى كووك » عن مسقط رأسى ، والسبب الذى دعانى إلى المجيء ، والرحلات التى قمت بها على ظهر السفينة ، وأحوالى المعيشية . . . وعندئذ فقط عرفت أنه كان بحاراً ، وأنه يعرف كل شيء عن

المهنة . وقد أبدى اهتماماً خاصاً بمعرفة أحوال البلاد التى زرتها . ثم دار الحديث حول بلادنا ؛ وحين عرف أننى كنت فى سايجون سألنى طويلا عن المدينة والسوق وأماكن أخرى ، وكان يصغى إلى فى اهتمام شديد . ويبدو عليه التفكير العميق .

وانطوى الوقت بسرعة مذهلة . واضطررت إلى استئذانه فى الرحيل إذ كانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء . فرجانى أن أعود فى اليوم التالي . . . صباح الأحد .

وعدت إلى الفندق ، وتمددت على الفراش ، وظللت أفكر طويلا . . . إن الشهرة لم تؤثر فى « نجوين » على الإطلاق . فلقد بقى بسيطاً ؛ لا يعرف الكلفة ، وظل حريصاً على أن يكون لطيف المعشر ، ودوداً .

. . . وبعد ذلك اللقاء الأول رأيت نفسى مدفوعاً إلى وضع كل ثقتى فى « نجوين أى كووك » على نحو لم يسبق له ضريب معى . . . شعرت بأننى على استعداد لأن أفعل أى شىء يطلبه منى . . . وأيقنت أن لشخصيته تأثيراً قويا ، وأنها مصدر إشعاع دائم . . .

وعدت إليه فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى . . . . كان فى انتظارى ، مرتدياً بدلة عادية من قماش أسود . . . لنقوم معاً بجولة فى باريس . وخرجنا ، وسرنا فى عدة شوارع ، ولم نكن نكف عن الحديث ، وبعد نحو ساعة دخلنا معرضاً فنياً . وهنا يطيب لى أن أعترف بأننى لم أكن أهتم فى ذلك الوقت — لصغر سنى — بالفنون الجميلة ، بيد أن مجرد وجودى معه كان متعة لى . كان ذلك المعرض ينتظم زهاء مائة من اللوحات ، وكان يغص بالزوار ، ولاحظت أن « نجوين » كان يعرف أناساً كثيرين من هؤلاء الزوار . وظل يدقق طويلا فى كل واحدة من اللوحات ، ويتحدث عنها إلى أصدقاء فرنسيين كانوا هناك . . .

. . . ثم أخذنى « نجوين » إلى شارع « ديكارم» ودخلنا مطعماً

صينيا لتناول الغداء . وبعدئذ عدنا إلى بيته الصغير حيث تحدث إلى عن نشاطه قائلا إن دخله من التصوير و « الرتوش » ضئيل جدا ، ولكنه يدخر منه جزءاً ينفقه على « لاباريا » .

على أن شتى المهام التى كانت تشغل وقت « نجوين » طوال النهار لم تكن تمنعه من التريض فى أيام الأحد ، وارتياد المعارض والمتاحف . وعند ما زرت باريس مرة ثانية اصطحبنى معه لزيارة متحف « اللوفر » . وكان يعرف أحياء باريس وشوارعها معروفة جيدة ، وخاصة الأحياء التى يعيش فيها العمال .

وقبل أن أغادر باريس أسدى إلى طائفة من النصائح أذكر منها بوجه خاص قوله :

« تذكر دائماً أنك ابن شعب فقد وطنه . . . يجب علينا أن نتعلم كيف نتفاهم فيما بيننا ، ونتضافر ، ولا ندع أحداً يغلبنا على أمرنا ، ويتعين علينا أن نكون كالبنيان المرصوص ، وأن نتضامن مع الطبقة العمالية ، ومع الشعب الفرنسى ، ومع شعوب كل المستعمرات ، فنحن جميعاً عمال مستغلون " بفتح الغين " » .

وعند ما وصلت إلى ميناء « الهافر » التف حولى الأتراب ، وأمطرونى بوابل من الأسئلة ، فلم أجد مفراً من أن أذكر لهم كل شىء ، فاستبد بهم الحماس . . .

وعلى الفور ، نظمنا الوسائل الكفيلة بنقل الصحف سرا إلى الهند الصينية ، وإلى البلاد التى يعيش فيها مهاجرون فييتناميون ، مثل « كاليدونيا الجديدة » و « ريونيون » . وجمعنا تبرعات لصحيفة « لاباريا » واشترينا مئات النسخ من تلك الصحيفة ومن صحيفة « لومانيتيه » ومجلة « لوبلشيفيك » لنرسلها إلى مواطنينا خفية .

وفى شهر أبريل من سنة ١٩٢٣ عادت الباخرة التى كنت أعمل عليها إلى ميناء « الهافر » فأسرعت إلى باريس بحثاً عن « نجوين أى كووك » .

ولم أكن قد أمسكت عن التفكير فيه خلال تلك الرحلة البحرية الطويلة .

وكانت الحركة العمالية الفرنسية ثائرة على الأوضاع بوجه عام : وفى منطقة « الهافر » ظل عشرات الآلاف من العمال مضربين عدة أشهر ، وحدثت اشتباكات دموية عديدة مع البوليس .

وفى فييتنام كانت الإدارة الاستعمارية تشدد النكير على الشعب أكثر من أى وقت مضى ، وازدادت الحال سوءاً بسبب كثرة الفيضانات والمجاعات ، ومع ذلك فقد كان الأرز الفييتنامى ينقل بكميات ضخمة إلى فرنسا ، وهو أمر جعل كيلنا يفيض . . . كانوا يسرقون أرزنا بينما كان مواطنونا يموتون جوعاً . . . ومن ثم رأينا أن من واجبنا أن نطلع « نجوين أى كووك » على هذه الأوضاع المؤلمة .

واتجهت إلى شارع « جوبلان » بيد أننى لم أجد « نجوين » فى بيته ، فأسرعت إلى مكتب الصحيفة حيث وجدته يتبادل أطراف الحديث مع أفريقى لم أكن أعرفه . وما أن رآنى حتى شد على يدى وقدم إلى محدثه الرقيق « سيجو » قائلا إنه من أبناء أفريقيا الغربية .

وكان أول شىء ذكرته له أن أعداد « لاباريا » والصحف الأخرى ترسل بانتظام إلى فييتنام . ولاذ بالصمت ، وارتسمت إمارات الألم على وجهه عند ما حدثته عن شحن كميات ضخمة من الأرز إلى فرنسا مع أن شعبنا يتضور جوعاً .

ويمضى « بوى لام » قائلا :

وفى خلال ذلك اللقاء علمت ، لأول مرة ، أن « نجوين » كان جاراً لمحام اسمه « فان ڤان ترونج » . وأنه — أى المحامى — تنازل له عن الشقة المتواضعة التى كان يقيم فيها . . .

وذكر لى « نجوين » أنه حدث ذات يوم أن دعاه « البيرسارو » وزير المستعمرات والحاكم العام السابق فى الهند الصينية لزيارته . وكان

أول ما قاله له : وهو يجز على أسنانه ويضغط بيده على المكتب فى عصبية ظاهرة : « إن لدى فرنسا من القوة ما يمكنها من إنزال عقاب صارم بالذين يتخذون منها موقفاً كله عناد » .

ولكن « نجوين أى كووك » لم يعلق أية أهمية على كلام « سارو » ، بل الواقع أنه ضرب به عرض الحائط : وآية ذلك أنه مضى فى معارضته العنيفة للاستعمار الفرنسى ، وعندئذ رأى « سارو » أن يهدئ من روعه توطئة « لشرائه » : فما كان من نجوين إلا أن رد عليه قائلا إنه ليس فى حاجة إلى أية مساعدة ، وأنه يكسب من عمله ما يكفيه ليحيا حياة كريمة .

وأضاف « نجوين » قائلا لوزير المستعمرات : « إنى فى حاجة إلى شىء واحد هو : استقلال الشعب الفييتنامى .

ولم يجد « البيرسارو » مفراً من أن يقبل اللطمة الشديدة التى سددها إليه « نجوين » مع أن المعروف عنه أنه كان سليط اللسان عنيفاً ، يتطاير الشرر من فمه ! كيف كان يمكنه أن يؤذى « نجوين » الذى كان يلقى تأييداً قوياً من الشعب الفييتنامى ، وشعب المستعمرات ، وفئات عديدة من الشعب الفرنسى ، ومن الحزب الشيوعى الفرنسى ؟

وفى شهر يونيو من عام ١٩٢٤ قدم الحزب الشيوعى الفرنسى « نجوين أى كووك » كمرشح عنه فى الانتخابات البرلمانية ، فى قائمة « كاشاى » و « كوتيريبه » . . . ونشر نبأ الترشيح فى الصحف ، وطبع على ملصقات .

وقد سعدنا ، نحن الفييتناميين ، بذلك أيما سعادة ؛ وكنا نقف فرحين مغتبطين على النواصى لنقرأ اللافتات . . . وكان يخيل إلينا كلما وقعت أبصارنا على اسم « نجوين أى كووك » أننا نرى تحته شعبنا وبلادنا .

وقد سجل الحزب الشيوعى الفرنسى ، بذلك الترشيح ، تضامن

الطبقة العاملة الفرنسية مع المستعمرات فى نضالها ضد العدو المشترك : الرأسمالية .

ولكن كان طبيعياً ألا يشترك « نجوين أى كووك » فى عضوية الجمعية الوطنية الفرنسية لسبب جوهرى هو أنه ليس فرنسياً .

وقد التقيت بـ « نجوين » للمرة الأخيرة فى فرنسا عند نهاية سنة ١٩٢٣ . وفى سنة ١٩٢٥ انضممت إلى الحزب الشيوعى الفرنسى . وفى خلال تلك الفترة سافرت إلى باريس وبحثت عن « نجوين » فى مكتب صحيفته « لاباريا » ، وقيل لى إنه يقيم فى حارة « كومبوان» رقم ٩ . وعند ما توجهت إلى هناك قال لى البواب ، بعد أن هز رأسه : إن « نجوين » سافر . . . وعدت إلى ذلك العنوان عدة مرات ، ولكن دون جدوى . . .

ثم عرفت أنه غادر فرنسا منذ وقت طويل ! . ولقد أحسست أنا ، مثلما أحس آلاف الفييتناميين الذين كانوا يعيشون فى فرنسا : أن ثمة فراغاً كبيراً خلفه « نجوين أى كووك » بسفره . . .

وبعدئذ عرفت أنه سافر إلى الاتحاد السوفيتى عند نهاية سنة ١٩٢٣

كان « الكومنتيرن » قد دعا فى ذلك الوقت إلى عقد المؤتمر الشيوعى الدولى الخامس ، وكان الاختيار قد وقع على « نجوين » ليكون مندوباً فيه بوصفه عضو قسم المستعمرات المتفرع من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى . وقد ألقى فى ذلك المؤتمر بياناً هاماً عن تحرير المستعمرات سجل بالحرف الواحد فى محاضر الجلسات .

ومما يذكر هنا أن المرض اشتد على « لينين » خلال تلك الفترة ، ولم تلبث المنية أن عاجلته ، ومن ثم أرجأ المؤتمرون جلساتهم حتى شهر يونيو من عام ١٩٢٤ .

* * *

ويجمل بى ، بعد هذا كله ، أن أقول إن « نجوين أى كووك » كان

« يصنع » رجالا أينما ذهب . ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم ألتق به ؟
كنت فى ذلك الوقت على يقين من أننى لن أعود إلى بلادى . . .
لأننا كنا جميعاً فى يأس مقيم ، ولا نعرف ماذا نفعل ! .

ثم ظهر « نجوين » فى طريقى . وذكرنى بما على من واجبات كمواطن نحو وطنى الضائع ؛ وأوضح لى الطريق الذى كان يتحتم على أن أسلكه للإسهام فى تحرير بلادى . . .

وبعدئذ تسلطت على ذهنى فكرة واحدة ؛ هى العودة إلى أرض الوطن لأضطلع بواجبى وتبعاتى . . .

وفى نهاية ذلك العام نفسه عدت إلى فييتنام .

الفصل السادس

الكاتب والصحفي

انضم « نجوين أي كووك » إلى القسم التاسع المتفرع عن الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان يسمى « قسم المثقفين » . وكان يضم بين أعضائه البارزين « جورج بيوش » الصحفي الفوار بالحماسة ، الذي كان معروفاً بأسلوبه الدقيق العنيف . وحججه القوية ، المفحمة . و « بوريس سوفارين » الذي كان وقتئذ ألمع مفكر ماركسي مناضل في باريس .

وقد اشترك نجوين معهما في المؤتمر الشيوعي الذي عقد في مرسيليا خلال شهر ديسمبر من عام ١٩٢١ . ونشرت صحيفة « لومانيتيه » في ذلك الوقت رسماً كروكياً للمناضل الشاب بريشة « جاسبيه » يمثل وجهاً طويلا . وقسمات غائرة ، وخصلة شعر متدلية(١) . . .

وشرع نجوين ، أثناء إقامته في باريس ، يختلف إلى مدرسة « الكادرات » التابعة للحزب الشيوعي . وكان للمناضل القديم « رادى » مدير المدرسة ابنان أحدهما اسمه فولتير ، والثاني ريقان . وقد توثقت الروابط بين « نجوين » وهذين الشابين ، ولا سيما فولتير رادى الذي كان من رواد الشبان الشيوعيين .

وأخذ نجوين ، في الوقت نفسه ، يتعلم فن الحديث والخطابة على

---

(١) راجع " هوشي منه " تأليف جان لاكويتر ص ٢٨ وما بعدها ، و" ذكريات عن هوشي منه" الذي اشترك في تأليفه عدد من المفكرين الفيتناميين ص ٤٥ وما بعدها (الجزء الثاني) .

يد جورج بيوش الذى كان معروفاً بلين جانبه . ودماثة خلقه . ولهذا السبب بالذات بدأ يتردد على بعض الأندية السياسية ليختبر قدرته على الخطابة . . .

كان فى البداية كثير التلعثم ، بيد أن عاطفته الجياشة كانت تدفعه مع ذلك إلى الاسترسال والإفاضة فى التنديد بالاستغلال الاستعمارى . ولكنه لم يلبث أن تعلم فن الإلقاء ، وأن أصبح خطيباً مفوهاً . سلس العبارة ، بارعاً فى بسط ما لديه من حجج مقنعة مفحمة .

ومن عجب أن « نجوين » لم يحاول أن يسترضى — بلا وعى — الطوائف العمالية ، أو زملاءه أعضاء الحزب الشيوعى ، ففى عدد يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٢٢ من صحيفة « لومانيتيه » كتب يقول :

« لقد قرر الحزب الشيوعى الفرنسى الاضطلاع بمهمة غاية فى الدقة ، متعلقة بالسياسة الاستعمارية . . . ولكنه يصطدم بما تبديه البروليتاريا فى باريس من عدم اكتراث ولا مبالاة حيال المستعمرات . . . وبالآراء المسبقة التى يتشبث بها العامل الفرنسى الذى يعد الأجنبى شخصاً أضأل منه شأناً ، فى حين أن الأجنبى يعد الفرنسيين مستغلين شريرين . . . » .

ولكنه كان ، بطبيعة الحال ، أشد عنفاً إزاء الإقطاعيين ، والخونة من الفييتناميين ؛ وقد صور عقيدته الثورية الجديدة فى كتاب وضعه خلال تلك الفترة وجعل عنوانه « قضية الاستعمار الفرنسى » الذى سبقت الإشارة إليه (١) ، وتولت طبعه مكتبة « العمل » ، التى طبعت العنوان على الغلاف بثلاث لغات هى العربية ، والصينية ، والفرنسية ! .

ولئن كان « نجوين » قد خصص الكثرة الغالبة من صفحات الكتاب للمشكلة الفييتنامية ، فإن مرجع ذلك إلى أنه كان يعرف دقائق تلك

---

(١) أعيد طبع الكتاب فى هانوى فى سنة ١٩٦٢ .

المشكلة حق المعرفة ، ولكنه حاول ، ما وسعته المحاولة ، أن يقدم أمثلة على الاستغلال الاستعمارى فى داهومى ، ومدغشقر ، وجزر الأنتيل .

والواقع أن هذا الكتاب ليس مجرد احتجاج وطنى باسم بلد مغلوب على أمره ، وإنما هو حملة شعواء على نظام له فروع دولية : الاستعمار .

والفصل الأخير من الكتاب يضم منشوراً « لاتحاد البلاد المستعمرة » . وقد اختتم الكتاب بنداء كارل ماركس الشهير : «بأعمال كل البلدان اتحدوا » .

وقد أصدر نجوين صحيفة لاباريا من شهر أبريل سنة ١٩٢٢ حتى شهر أبريل سنة ١٩٢٦ ، ولكنه لم يوفق خلال تلك الفترة إلا فى إصدار ثمانية وثلاثين عدداً . وكانت الصحيفة فى البداية شهرية ، ثم رأى نجوين أن يصدرها نصف شهرية ، وبعد ذلك بدأت تصدر فى مواعيد غير منتظمة وخاصة بعد أن سافر نجوين إلى موسكو قبيل نهاية عام ١٩٢٣ .

وكان نجوين شديد الحرص على قراءة بروفات الصحيفة بدقة وعناية ، حتى لا يجد القراء فيها أخطاء مطبعية ، كما كان ينشر فى كل عدد صورة فوتوغرافية ، أو بضعة رسوم ذات دلالة ومغزى . وحرى بالذكر هنا أن الكثرة الغالبة من تلك الصور والرسوم كانت تمثل قسوة كبار رجال الإدارة الاستعمارية الفرنسية فى فيتنام وشراستهم ، أو إقطاعيين فيتناميين يسومون الفقراء من أبناء وطنهم ألوانا من العذاب .

ولم تكن «لاباريا» تتضمن إلا توقيع «نجوين» فى أغلب الأحيان ، وكان يؤثر أن يكون اسمه المنشور فيها « نجوين أى كاك » وليس « نجوين أى كووك » على أنه نشر فى بعض أعدادها مقالات للزعيم السورى رشيد رضا ، أو فصولا عن « حرب الريف » لمارسيل كاشان ، أو دراسات عن الجزائر بتوقيع « الحاج بيكو » أو « على بابا » أو « الجزائرى » . . . ويلوح أن الذى كان يكتب بتلك الأسماء المستعارة هو الحاج على عبد القادر مؤسس الحزب الشيوعى الجزائرى ، وليس « مصالى الحاج » .

وقد وجه « نجوين » فى أحد أعداد « لاباريا » خطاباً مفتوحاً إلى



الرئيس الراحل هوشي منه
مع الجنرال جياب

ألبير سارو وزير المستعمرات، الذى كان قد أنشأ وقتئذاك إدارة خاصة لمراقبة أبناء الهند الصينية المهاجرين الذين كانوا يقيمون فى فرنسا . وقال فى ذلك « الخطاب » بالحرف الواحد :

« فى الوقت الذى يسعى فيه البرلمان إلى الاقتصاد فى المصروفات ويتجلى فيه ضعف الزراعة والصناعة ، ويطالب الشعب بتعبئة كل الطاقات الإنتاجية . . . فى هذا الوقت يلوح لنا أن إنشاء تلك الإدارة يكلف البلاد نفقات باهظة . . . وإذا كنت ، يا صاحب السعادة ، تريد أن تعرف ماذا نفعل نحن كل يوم ، فهذا أمر يسير : سننشر كل يوم بياناً عن حركتنا ، وما عليك إلا أن تكلف نفسك مشقة قراءته . . . »

ومضى يقول فى لهجة لا تخلو من السخرية اللاذعة :

« أما فيما يتعلق بى شخصيا ، فإنى أقضى فترة الصباح – من الساعة الثامنة حتى الساعة الثانية عشرة – فى مرسمى . وأنفق فترة بعد الظهر فى مكاتب الصحف (اليسارية بطبيعة الحال) أو فى دار الكتب . أما فى المساء فستجدنى فى غرفتى ، وأيام الأحد هى أيام الراحة ، وأوثر أن أمضيها فى زيارة المتاحف ، أو أماكن أخرى مفيدة . . . هذا كل ما فى الأمر ! ! » .

ويختم نجوين « خطابه المفتوح » قائلا :

« وإنى إذ آمل أن ترضى ، يا صاحب السعادة ، عن هذا البرنامج المريح الدقيق ، أرجو أن تقبل تحياتى . . . » .

على أن المقالات التى كان يكتبها « نجوين » لم تكن من هذا النوع الخفيف الذى يثير الضحك ، بل كانت ، فى أغلب الأحيان ، حملات جد عنيفة على النظام الاستعمارى الفرنسى ، مدعمة بالأرقام لا بالعبارات التصويرية ، ومملوءة بالنكات المؤلمة لا بالضحكات الثأرية .

ولم تكن « لاباريا » تبذل أى جهد لإخفاء ميولها السياسية ، فحين

« وكانت ديدمونا الطيبة القلب تعرف أن أباها كان — بحكم منصبه — عنصرياً ، ومن ثم وطنت النفس على الاقتران بعطيل دون أن أن تحصل على موافقة أبيها » .

« وفى تلك المسرحية لم يلعب ياجو ورود ريجو : وهما من الجنس الأبيض ، دوراً لامعاً ، والواقع أنهما كانا يبدوان أشد سواداً من السود أنفسهم ! » .

« وانقضت ثلاثمائة وعشر سنوات ، وما برح الأجانب واقفين على المسرح . . . منظر مسرح الحرب . والمؤلف فى هذه المرة نكرة ، ولا يمكن الاهتداء إلى مكانه ، بيد أن أغلب الممثلين — الأبطال منهم وغير الأبطال — ما برحوا واقفين على خشبة المسرح لأنهم اهتموا بأداء أدوارهم كل الاهتمام . . . إنها لمأساة حقيقية ! ! إن سنة ١٩٢٢ ترى الأجانب يعودون إلى المسرح مرة أخرى . . . إنهم يلحقون بالبواخر ، ويرسلون إلى أوربا كمتطوعين لمحاربة الوحشية ، والدفاع عن "الحضارة" . . . إن الأجانب الذين خرجوا أحياء من مذبحة عام ١٩١٤ — شأنهم شأن الذين ظلوا أحياء بعد الحرب العالمية الأولى — يستطيعون أن يقولوا إنهم لم يعطوا دماءهم من أجل حق وديمقراطية الجنس الأسمر ، بل أعطوا كل شيء آخر يملكونه . . .

« ولقد اكتفى مسيو شكسبير بعقد قران عطيل الزنجى على الشابة البيضاء . . . أما الكتاب المسرحيون الفرنسيون — ومنهم ساشا جيترى — فقد طالبوا بأن يصبح الزنوج والملونون متحضرين لكى يغزوا المجتمع الأبيض ويحملوا سيداته على خيانة أزواجهن ! وقد تحقق لهؤلاء الكتاب ما أرادوا ، فقد وضعت مدام "مارجريت دنوايبه" — بعد بدء " الغزو " بتسعة أشهر — طفلا ملوناً ! ويؤسفنا أن مسيو مارسيل دنوايبه لم يرحب بمولد هذا الطفل ، لأنه كان يؤثر أن يولد هذا الطفل غزير الشعر ، يحمل كيساً على ظهره ، وبندقية على كتفه ليدافع عن أرض الوطن ! » .

« . . . ومن حق إخواننا أهالى المستعمرات أن يشعروا بالفخر ، ومن حقنا نحن أن نكون سعداء . ذلك أن سيدات المجتمع الراقى الأنيق سيرتدين ، ابتداء من العام القادم . شيئاً من عندنا . فقد قررت بيوت الأزياء الباريسية أن تكون أقمشة المستعمرات موضة الربيع القادم ، وستطلق على الأثواب الخليعة أسماء مثل " ثى بى " و "بامبارا" و " أولوى" و" لوفلوف" . . . . » .

« هيا بنا يا أبناء المستعمرة : لقد جاء يوم المجد ! » .

* * *

ونشرت « لاباريا » فى يوم أول فبراير سنة ١٩٢٣ المقال التالى :

« لقد بذلنا قصارى جهدنا — دون جدوى — لنعثر فى رأسنا الأصفر على السبب الذى دفع رجال فرنسا ونساءها إلى إنشاء تلك المؤسسة الشهيرة المسماة « جمعية حماية الحيوانات » . ونحب أن نقول ، بادئ ذى بدء ، إننا لا ندرك ذلك السبب لأننا نلاحظ أنه لا تزال هناك كائنات بشرية بائسة تطلب العناية بها قليلا ، يضاف إلى ذلك أن تلك الحيوانات ليست أهلا لكل هذا الاهتمام ، وليست بائسة إلى هذا الحد ، ولكننا نستثنى الأسد الأسود الذى يفيد أولئك الذين ألفوا أن يلفوا أقدامهم بجلود الحيوانات . . . إن أكثر هؤلاء الناس شرسون . . . شديدو الشراسة » .

« ألا يجىء "البولدوج"— بأسنانه الكريهة — لينتزع صرح مؤتمر باريس ؟ وهذا يكره القرد الفلمنكى ، والديك الفرنسى ، على أن يواجها ، وحدهما ، النسر الألمانى فى منطقة الروهر ! لقد استطاع النمر " كليمنصو" قبل أن تفك قيوده ، أن يلتهم عدداً من وزارات الجمهورية ! ألم ينفقوا — دون طائل — الملايين والبلايين — بواسطة صديقينا العظيمين كولتشاك ورانجل — لشراء جلد الدب المسكوفى الذى لم يعد اليوم راغباً فى أن يدع أحداً يدنو منه ؟ » .

« من فى هذه العاصمة لا يشكو من شرور النسور ؟ وهل تفعل

القطط شيئاً غير محاولة الإفادة من الخلافات والانقسامات والتمزق الاجتماعى ؟ وبائعات الهوى الأنيقات . . . ألسن يعملن على هدم الحياة الزوجية ؟ وفئران الفنادق . . . أليست ألد أعداء المسافرين ؟ .

« ثم نلاحظ أن أقوى الذئاب يكون دائماً على حق ، وأن النعاج هى آفة المجتمع الشريف . . . ولكن لنتحدث قليلا ، قبل أن نختم كلامنا ، عن حيوانات المستعمرات . . . »

« إن الذين يعملون على توفير مقومات الحضارة والمدنية لنا يبذلون قصارى جهدهم — وهذا أمر يجب علينا أن نعترف به — لكى يلبسوا عدداً من اليمام الأجنبى الهادئ المطيع ، ريش النعام ليحولوها إلى ببغاوات أو كلاب حراسة ! ! »

« وصفوة القول أن كل الحيوانات تعيش فى نعيم نسبى ، وإذن إذا كان لدى أعضاء "جمعية حماية الحيوانات" ساعات فراغ فيجمل بهم أن يهتموا ، أولا ، بالقرود التى يعذبها دكتور « فورونوف » . وبالحملان الأجنبية المسكينة التى يجزون شعرها على الدوام ! » .

الفصل السابع

مؤسس الحزب

أصبحت الطبقة العاملة الفييتنامية ، على الرغم من قلة عدد أفرادها ، قوة سياسية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكان مرد ذلك إلى أنها عرفت كيف تفيد من تأثير ثورة أكتوبر الروسية ، والثورة الصينية ، وإلى الجهود الجبارة حقاً التى بذلها « نجوين أى كووك » فى سبيل نشر الماركسية اللينية فى بلاده .

وكانت الطبقة العاملة الفييتنامية مركزة إذ ذاك ، إلى حد كبير ، فى المناطق الصناعية . فنى عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ كانت صناعة التعدين فى فييتنام الشمالية تنتظم أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف عامل ، من بينهم زهاء ستة وعشرين ألفاً كانوا يعملون فى مناجم الفحم . وكانت شركة « نام دينه » للنسيج تستخدم ٤٥٠٠ عامل ، وكان عدد عمال شركة الغزل الأنامية (نسبة إلى أنام) يربو على ستة آلاف عامل[1]* .

وقد استطاعت تلك الطبقة ، بفضل احتشادها فى المناطق الصناعية ، أن تنظم صفوفها على نحو لا بأس به ، ومن ثم بدأت تناضل بطريقة لا تخلو من القوة والفعالية ضد السادة الفرنسيين . غير أن نمو نضالها المطرد ، واتساع نطاقه ، كان يقتضى إنشاء حزب سياسى يتولى الزعامة .

ولهذا السبب بالذات وصل « نجوين أى كووك » إلى مدينة كانتون

---

* (١) راجع " الرئيس هوشى منه " تأليف " فام فان دونج " ص ٥٤ وما بعدها.

الصينية فى شهر ديسمبر من عام ١٩٢٤ ، ليشعل الثورة الفييتنامية . وكان أول ما فعله إثر وصوله إلى تلك المدينة أن بدأ يدرس ويحاول أن يدرك حقيقة الموقف فى بلاده .

وكان الشعب الفييتنامى فى ذلك الوقت يزداد غضباً وحقداً . يوماً فى إثر يوم ، من جراء إسراف المستعمرين الفرنسيين فى اتباع أعنف الأساليب الاستغلالية . غير أن زعامة تلك الحركة كانت ضعيفة ، وكانت تضم مثقفين تقدميين تضافروا حول الـ « فييتنام كوانج فوك هوى » — أى جمعية بعث فييتنام — التى كان يتزعمها « فان بوى شاو » .

وكان « نجوين أى كووك » قد تقدم إلى « الدولية الثالثة » فى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٤ ، بتقرير عن تلك الجمعية قال فيه : « كان هدف تلك الجمعية الوحيد هو استرداد الأرض التى غزاها الجنود الفرنسيون ، ولكنها كانت تفتقر إلى خطة عمل صائبة ، وسياسة سليمة ، ولم تبد أى اهتمام بمسألة تنظيم الجماهير » .

وقد انهارت تلك الجمعية بسرعة لأنها فشلت فى وضع خطة ثورية محكمة ، ولأنها لم تعرف كيف تنظم صفوف الجماهير الغاضبة على الاستعمار الفرنسى ، ثم لأنها لم توفق فى تحديد أهدافها السياسية على نحو ييسر لها الاضطلاع بمهمتها الوطنية الكبرى .

وفى سنة ١٩٢٣ أنشئت جمعية « تام تام كسا » — أى جمعية القلب للقلب — فى كانتون ، وكانت تضم مناضلين تقدميين نذكر منهم « لى هونج فونج » و « هونج سون » . بيد أن البرنامج الذى وضعته لنفسها كانت تعوزه الدقة .

وفى شهر يونيو من العام التالى كلفت تلك الجمعية رجلا شجاعاً من أعضائها باغتيال الحاكم العام الفرنسى فى شامين (الصين) . وكان لذلك العمل البطولى تأثير قوى جداً فى نفوس الشعب الفييتنامى . بيد أن الجمعية لم تنجح فى إنشاء قواعد لها فى فييتنام .

وفى تلك الفترة ظهرت فى فييتنام حركة إصلاحية طالبت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بطائفة من الإصلاحات . أما الحركات الوطنية التى قامت بها آنئذ البورجوازية الصغيرة . والبورجوازية الوطنية ، فكانت تدعو إلى التعصب ، وكان برنامجها الثورى يقوم على الاغتيالات الفردية ، وتدبير المؤامرات .

وكانت تلك الأوضاع تتطلب من « الحزب » ومن الطبقة العاملة الثائرة أن يتوليا قيادة الشعب فى نضاله . وقد طلبا إلى « نجوين أى كووك » فى إلحاح شديد ، أن يضاعف الجهود المبذولة فى سبيل نشر العقيدة الماركسية — اللينينية ، وأن يضطلع بالأعمال التنظيمية اللازمة ، توطئة لإرساء « الحزب » على أسس قوية متينة .

وفى شهر يونيو من عام ١٩٢٥ تمكن « نجوين أى كووك » من إعادة تنظيم جمعية « القلب للقلب » ، وأطلق عليها اسماً جديداً هو « جمعية الرفاق الفييتناميين الثوريين » ، وجعل منها منظمة ثورية ذات طابع شعبى واسع النطاق ، واتخذها وسيلة لنشر العقيدة المركسية — اللينينية ، ولم شمل الوطنيين من ذوى الميول الشيوعية .

ولم ينس « نجوين أى كووك » ، أثناء اضطلاعه بمهمة تنظيم القوى الثورية فى البلاد ، العمل فى سبيل توحيد الشعوب التى تكافح للتخلص من نير الاستعمار ، ففى « كانتون » اشترك مع مواطنى عدد من البلاد الأخرى فى تكوين « عصبة الشعوب المغلوبة على أمرها فى آسيا » ، ولم تلبث تلك العصبة أن شملت كوريا ، وأندونيسيا ، والملايو ، والهند ، والصين ، وفييتنام .

وكانت البلاد الرازحة تحت نير الاستعمار تفتقر إلى « الكادرات » القيادية ، وإلى التنظيم ، كما لاحظ « نجوين » فى البيان الذى تلاه فى مؤتمر الدولية الشيوعية . وكانت فييتنام ، هى الأخرى ، فى أمس الحاجة إلى « الكادرات » .

ومن ثم رأى « نجوين » أن المهمة الأولى التى لا معدى عن القيام بها فى أقرب وقت مستطاع هى تدريب الكادرات التى تمس حاجة الحركة إليها . ولهذا أوفد عدداً من الشبان إلى الاتحاد السوفيتى للدراسة فى بعض معاهدها ، كما أوفد عدداً آخر للدراسة فى كلية « هوامبوا » العسكرية فى الصين . وفى الوقت نفسه نظم دراسات قصيرة الأجل للكادرات فى كانتون واستطاع أن يدرب — من منتصف عام ١٩٢٥ حتى منتصف ١٩٢٧ — أكثر من مائتين من الكادرات ، وأوفدهم إلى فييتنام حيث دربوا بدورهم ، عدداً كبيراً من أفراد الشعب ، وبذلك تمكنوا من توسيع نطاق الحركة الثورية .

ولم يهمل « نجوين » الدعاية على الرغم من انهماكه فى تنظيم برامج التدريب ، ولهذا أصدر صحيفة « الشباب » لتتحدث باسم اللجنة العامة «لرابطة الشبان الفييتناميين الثائرين »، وكانت مهمتها تعريف الجماهير فى فييتنام بالماركسية اللينينية . ومما يذكر هنا أن « نجوين » كتب فى تلك الصحيفة مقالات عديدة كان لها الفضل الأكبر فى إحياء الضمير السياسى فى نفوس الجماهير .

وفى غضون عام ١٩٢٦ وضع كتاباً عنوانه « الطريق الثورى » حدد فيه للثورة الفييتنامية الاتجاه السليم الذى يجمع بين الماركسية والواقع الفييتنامى .

ويتضمن ذلك الكتاب ثلاثة عناصر بارزة هى :

١ — الثورة هى مهمة جماهير العمال والفلاحين وليست عملا يقوم به عدد قليل من الناس .

٢ — يجب أن يرسى أسس الثورة حزب ماركسى — لينينى .

٣ — يجب أن تتحد الثورة فى فييتنام مع البروليتاريا الدولية ، وينبغى أن يتمكن الشعب المكافح ، ومعه الطبقة العاملة ، من التمييز بين الدولية الثالثة والدولية الثانية .

ويتحدث « نجوين أى كوك » فى كتابه هذا عن القوى الثورية فى فييتنام فيقول :

« إن الضغط يولد الثورة . ولهذا كلما اشتد الضغط على الإنسان ، ازدادت روحه الثورية قوة . وازداد تصميمه الثورى صلابة ، لقد كان الإقطاع يضغط فى الماضى على الرأسمالية . ولهذا السبب حدثت ثورة ، والآن تضغط الرأسمالية على العمال والفلاحين ، والنتيجة هى أنهم أصبحوا القوى الحقيقية للثورة . وهذه هى الأسباب :

أولا : إن أشد أنواع الضغط تقع على العمال والفلاحين .

وثانياً : إنهم أوفر عدداً . ومن ثم فإن قوتهم الثورية هى الأقوى .

وثالثاً : إنهم لا يملكون شيئاً غير أيديهم المكشوفة ، ولهذا فإنهم لن يخسروا إلا حياتهم المليئة بعوامل البؤس إذا منوا بالهزيمة ؛ أما إذا انتصروا فإنهم سيكسبون العالم بأسره . وهم — على هذا الأساس — أشجع الناس . ولهذا الأسباب يعد العمال والفلاحون قواعد ثورية . وثمة ضغط واقع على الطلبة ، والمدرسين وأصحاب الصناعات الصغيرة ؛ ولكن هذا الضغط أضأل من ذلك الذى يعانى منه العمال والفلاحون . إذن فهم — أى الطلبة والمدرسون ، وأصحاب الصناعات الصغيرة — لا يمكن أن يكونوا إلا أصدقاء ثوريين للعمال والفلاحين .

وعرج على العوامل التى لا بد من توافرها لانتصار الثورة الفييتنامية فقال :

يجب — أولا وقبل كل شىء — أن يكون ثمة حزب ثورى ينظم الجماهير فى بلادنا ، ويثيرها ويتصل — فى الخارج — بالشعوب المغلوبة على أمرها ؛ وبالطبقة العاملة فى كل مكان . ولا يمكن أن تنجح الثورة إلا إذا كان الحزب قوياً حازماً . ولكى يكون الحزب قوياً ينبغى أن تكون له عقيدة — أيديولوجية — يفهمها كل الأعضاء ويتبعونها . والحزب الذى لا أيديولوجية له كالشخص المحروم من الذكاء ، أو كالسفينة التى

لا بوصلة فيها .

وهنا يقول : « فام فان دونج » :

« إن تقدير القوة الدافعة الثورية للحزب وإيديولوجيته فى كتاب « الطريق الثورى » هو فى الواقع الذى كون الأفكار والآراء التى سارت على هداها الثورة الفييتنامية خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة » .

« ولقد اصطدمت مهمة نشر الماركسية — اللينينية التى اضطلع بها « نجوين أى كووك» ورابطة الشبان الفييتناميين الثائرين بعقبات عديدة كأداء من جراء أعمال القمع الوحشية التى كان يقوم بها الاستعماريون . فلقد حاولوا ، بكل الوسائل ، منع شعبنا من معرفة أى شىء عن ثورة أكتوبر الروسية والاتحاد السوفيتى ، وبذلوا قصارى جهودهم للحيلولة دون اتساع نفوذ الحركة الشيوعية الفرنسية ، والثورة الصينية » .

« بيد أن الدعاية المنظمة الدقيقة التى قام بها " نجوين" ورابطة الشبان الفييتناميين الثوريين أدت إلى تمكين الشعب من الوقوف على معلومات مفيدة عن الحركة الثورية فى العالم ، وبذلك أصبح الفييتناميون أعظم ثقة ، وأشد تحمساً واطمئناناً إلى مستقبل بلادهم ومصيرها . والواقع أن تعدد فروع تلك الرابطة فى شتى أنحاء فييتنام يسر مهمة إعداد الأسس التى كانت لازمة لإقامة الحزب عليها » .

ويمضى « فان فان دونج » قائلا :

« وفى ذلك الوقت اشتد المد النضالى فى فييتنام . . . فقد أسهم الملايين — من كل الفئات —فى سلسلة من الاضرابات شملت المصانع والأسواق ، والمدارس ، وتعددت الاجتماعات ، وكثرت المظاهرات » .

« على أنه كان هناك ، من وجهة النظر الأيدولوجية ، صراع شديد على الزعامة بين الأحزاب السياسية : رابطة الشبان الفييتناميين الثائرين ، والحزب الوطنى الفييتنامى فى فييتنام الشمالية ، والحزب الدستورى . وكان ذلك الصراع ثائراً — فى الواقع — بين أيديولوجية البروليتاريا الثورية

وتعصب الأيدريولوجية الإصلاحية التى كانت تعتنقها البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الوطنية » .

وفى شهر أبريل من سنة ١٩٢٧ قام « تشيانج كاى شيك » بثورة مضادة استطاعت الاستيلاء على ثمار الثورة ، وترك لنفسه الحبل على الغارب فى معاملة الأعضاء الصينيين الشيوعيين بقسوة ووحشية ، ولم يتردد رجاله فى الزج بالكادرات الفييتناميين فى غياهب السجون فى كانتون .

وكان من جراء الهمجية التى تجلت فى مسلك تشيانج كاى شيك وأذنابه أن اضطرت اللجنة العامة لرابطة الشبان الفييتناميين الثائرين للانتقال إلى هونج كونج . وسافر « نجوين أى كووك » إلى شنغهاى ، ومنها إلى الاتحاد السوفيتى ، ثم إلى بروكسل حيث حضر « المؤتمر الحزبى المناهض للإمبريالية » .وبعدئذ زار فرنسا ، وألمانيا ، وسويسرا ، وإيطاليا .

وفى خريف العام التالى — ١٩٢٨ — غادر أوربا إلى سيام (تايلاند) ليقدم يد المساعدة إلى حركة الفييتناميين الذين كانوا مقيمين فى تلك البلاد .

وفى غضون ذلك كانت رابطة الشبان الفييتناميين الثائرين قد وسعت نطاق نشاطها حتى أصبح يشمل الكثرة الغالبة من المرافق العامة ، وطفقت تدعو الأهالى إلى الأخذ بأسباب الماركسية — اللينينية ، وقد نجحت دعوتها فى البيئات العمالية بوجه خاص ، وكانت نتيجة ذلك النشاط الجم أن بدأت الحركة النضالية العمالية تزداد قوة وعنفاً ، وأن اشتدت مطالبة الجماهير بإنشاء « حزب قيادى » .

وفى الثالث والعشرين من شهر يناير عام ١٩٢٩ عقدت رابطة الشبان الفييتناميين الثائرين مؤتمرها التمهيدى فى هونج كونج. وقد أثار المندوبون الشيوعيون الذين مثلوا فيتنام الشمالية فى المؤتمر مسألة إنشاء

الحزب ، بيد أن المؤتمرين رفضوا الفكرة . وحين عاد أولئك المندوبون إلى فييتنام أنشأوا فى فييتنام الشمالية هيئة من سبعة أعضاء أطلقوا عليها اسم « الجماعة الشيوعية » .

وفى شهر مايو من العام نفسه عقدت الرابطة سالفة الذكر مؤتمرها فى « مكاو » ، وطالب مندوبو « الجماعة الشيوعية » بحل الرابطة وإنشاء « الحزب الشيوعى » ، ولكن المؤتمر رفض أن يناقش الأمر . وعندئذ انسحب مندوبو فييتنام الشمالية من المؤتمر عائدين إلى بلادهم حيث أنشأوا « حزب الهند الصينية الشيوعى » الذى شرع يبذل نشاطاً جماً فى فى فييتنام الشمالية والوسطى .

وبعد انتهاء ذلك المؤتمر أنشأ التقدميون ذوو الميول الشيوعية من أعضاء اللجنة العامة لتلك الرابطة « الحزب الشيوعى الأنامى » الذى تجلى نشاطه فى فييتنام الجنوبية.

وجدير بالذكر ، بعد هذا كله ، أنه كانت هناك فى فييتنام ثلاثة أحزاب شيوعية ، يعمل كل منها على حدة ، وحين وصل « نجوين أى كوك » فى تلك الأثناء إلى هونج كونج دعا إلى عقد مؤتمر برياسته لتوحيد تلك الأحزاب الثلاثة وإدماجها فى حزب واحد يسمى « الحزب الشيوعى الفييتنامى » ، وفى الثالث من شهر فبراير عام ١٩٣٠ صدر بيان رسمى عن إنشاء ذلك الحزب الجديد .

وبعد مسألة توحيد الحزب جاءت مسألة إقرار برنامج الحزب فى المؤتمر . وقد وضع « نجوين أى كوك » بنفسه مسودة ذلك البرنامج الذى أذيع نصه فى الثامن عشر من فبراير عام ١٩٣٠ .

وفيما يلى فقرات من النداء الذى وجهه « نجوين » آنئذ لإنشاء الحزب الشيوعى :

« إن أعمال القمع الوحشية التى يقوم بها الإمبرياليون الفرنسيون قد أيقظت مواطنينا الذين أدركوا جميعاً أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا إلا إذا

كانت هناك ثورة . وأنهم بدونها سيفنون . ولهذا السبب بالذات نمت الحركة الثورية من حيث القوة والحجم . . . إضرابات فى المصانع ، وإصرار الفلاحين على ملكية الأرض ، وإضرابات فى المدارس والأسواق . . . لقد هبت الجماهير فى كل مكان ضد الإمبرياليين الفرنسيين » .

« لقد بثت الثورة الفزع والرعب فى قلوب الإمبرياليين الفرنسيين الذين يستخدمون الإقطاعيين والبورجوازيين للضغط على الأهالى واستغلالهم ، ويضطهدون ويعتقلون ويسجنون ، ويقتلون الفييتناميين. وهم يخطئون إذا اعتقدوا أن فى مقدورهم أن يسحقوا الثورة الفييتنامية بالإرهاب وذلك لعدة أسباب أولها أن الثورة الفييتنامية ليست معزولة ، فهى تتلقى عوناً من البروليتاريا الدولية عامة ، ومن الطبقة العاملة الفرنسية بوجه خاص . والسبب الثانى أن الفييتناميين الشيوعيين الذين كانوا مشتتين فيما مضى أصبحوا متحدين فى حزب هو الحزب الشيوعى الهندى الصينى "نسبة إلى الهند الصينية" الذى يقود مواطنينا جميعاً فى طريق الثورة » .

« أيها العمال — والفلاحون ، والشبان ، والطلبة » .

« أيها المواطنون المستغلون » .

« لقد تم إنشاء الحزب الشيوعى الهندى الصينى ، إنه حزب الطبقة العاملة . وسيوجه الحزب البروليتايا لتشعل الثورة ، وذلك للنضال فى سبيل مصالح الناس المغلوبين على أمرهم بصفة عامة » .

« وابتداء من هذه اللحظة يجب علينا أن ننضم إلى الحزب ، وأن نعاونه ، ونسير فى ركابه ، وذلك لتحقيق الشعارات التالية :

١ — إسقاط الإمبرياليين ، والإقطاعيين ، وأعداء الثورة البورجوازيين فى فييتنام .

٢ — كفالة الاستقلال التام للهند الصينية .

٣ — إنشاء حكومة يشترك فيها العمال والفلاحون والجنود .

٤ — مصادرة البنوك وغيرها من المرافق التى يملكها الإمبرياليون ،

وإخضاعها لإشراف حكومة العمال والفلاحين والجنود .

٥ — مصادرة كل المزارع والملكيات التى يملكها الإمبرياليون وأعداء الثورة من الفييتناميين البورجوازيين . وذلك لتوزيعها على الفقراء .

٦ — العمل ثمانى ساعات فى اليوم .

٧ — وضع نظام للقروض التى تقدمها الدولة ، وإعفاء الفقراء من الضرائب المرهقة .

٨ — كفالة الحرية فى كل صورها للجماهير .

٩ — توفير وسائل التعليم لأفراد الشعب كافة .

١٠— إقرار المساوة بين الرجال والنساء .

* * *

وعمد « الحزب » — عقب انتهاء مؤتمر الوحدة — إلى توسيع نطاق العمليات التى كان يقوم بها لتنظيم صفوف الجماهير ، وحضها على الثورة ، وكان الخط الثورى القوى للحزب موائماً لأوضاع المجتمع الفييتنامى العملية ، ولمصالح وأمانى الجماهير ، ولهذا رحبت به الجماهير كل الترحيب ، ولهذا أيضاً اتسع نطاق الهبات الثورية من الشمال إلى الجنوب على نحو لم يسبق له مثيل ، وبقوة لم يشهدها الاستعماريون من قبل ، واشتد نضال العمال والفلاحين ضد الإمبرياليين ، والإقطاعيين .

وأراد « نجوين أى كووك » ، فى الوقت نفسه ، أن يمكن الشعب الفييتنامى من الوقوف على مزيد من المعلومات عن الاتحاد السوفييتى ، ومن ثم وضع كتاباً أسماه « مذكرات شخص نجا من سفينة تحطمت» وضمنه ما سمعه ورآه فى الاتحاد السوفييتى ، بأسلوب سلس أخاذ .

وفى شهر أبريل من عام ١٩٣٠ عقدت اللجنة المركزية للحزب اجتماعها الأول فى هونج كونج ، ووافقت على البرنامج السياسى ، وقررت

تسمية الحزب « الحزب الشيوعى الهندى الصينى » .

وعلى هذا النحو زودت الثورة الفييتنامية التى اختارت لنفسها الخط الماركسى – اللينينى ، ببرنامج شامل كفل للطبقة العاملة ، وللأمة بأسرها ، التوجيه الصحيح السليم لنضالها توطئة للظفر بالنصر النهائى .

ومنذ ذلك الوقت اضطلعت الطبقة العاملة الفييتنامية – على الرغم من الصعاب والأخطار التى صادفتها فى طريقها – بمهمة قيادة الثورة فى سبيل التحرر ، وقطعت شوطاً كبيراً فى بناء الصرح الاشتراكى . . .

ويرجع الفضل فى هذا كله إلى الروح الثورية البطولية للطبقة العاملة الفييتنامية والجهود العظيمة التى بذلها الشعب ، والمساعدات ذات الشأن التى قدمتها الأحزاب الشقيقة . . .

. . . ثم إلى « نجوين أى كووك » مؤسس الحزب ومعلمه .

الفصل الثامن

العودة إلى الوطن

بعد ٣٠ سنة فى المنفى !

كان من أثر الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى اجتاحت سائر أنحاء العالم فى الثلاثينات ، أن عانى الشعب الفييتنامى ، وخاصة الفلاحين والعمال ، ألواناً من الشدائد أخطرها البطالة التى استشرت بسرعة ، وتضاؤل كميات المواد الغذائية ، مما أوشك ، خلال فترة ما ، أن يؤدى إلى مجاعة عامة .

وكانت جماهير الشعب تزداد تبرماً بالأوضاع الاقتصادية ، واستعداداً لإشعال ثورة عارمة كلما تكاثرت العوامل التى تسببت فى تعطل عدد كبير من العمال الصناعيين والزراعيين ، وفى تضاؤل كميات المواد الغذائية الرئيسية .

وكان طبيعيًّا ، وقد وصلت الحال الاقتصادية إلى تلك الدرجة من السوء بل من الخطورة ، أن تبلغ الحركة الثورية بزعامة « الحزب » ذروتها : فقد عمد العمال والفلاحون فى كثير من مناطق إقليمى « نجه آن » « هاتنه » إلى إسقاط السلطة الإمبريالية والإقطاعية ، وإنشاء سلطة جديدة يوجهها الحزب .

وكان « نجوين أى كووك » يواصل ، خلال تلك الفترة العصيبة ، إرسال التعليمات لإرشاد المشرفين على الحركة الثورية داخل البلاد ، ويبذل جهداً مضاعفاً لتعليم « الكادرات » طريقة العمل ، وتصويب ما يقعون فيه من أخطاء .

من ذلك مثلا أنه بعث فى العشرين من شهر أبريل عام ١٩٣١ ، إلى اللجنة المركزية للحزب ، برسالة يقول فيها ما يأتى :

« إنكم تضطلعون بالمهام الموكولة إليكم على نحو غير عملى ، ولا يتلاءم مع الأوضاع فى كل منطقة . والملاحظ أن بعض المنظمات لا يهتم اهتماماً كافياً بالجبهة المناهضة للإمبريالية . وأنا أطالبكم بما يأتى :

١ — تصحيح تلك الأخطاء .

٢ — وضع برنامج عمل محدد وملموس لكل منطقة وإقليم .

٣ — يجب أن تسند المهام إلى أعضاء الحزب بطريقة عسكرية ، وعلى الرفاق المسئولين عن منطقة أو مهمة معينة أن يضعوا برنامج عمل لكل رفيق فى كل منظمة .

٤ — يتحتم على اللجان التنفيذية المتفرعة عن الحزب أن تتولى بنفسها الإشراف على تنفيذ برامج العمل .

٥ — على اتحادات نقابات العمال الشبان أن تتحد ، أولا وقبل كل شيء ، وأن يكون لها وجود مستقل .

وكان « نجوين أى كووك » شديد الاهتمام بمسألة التضامن ، والتضافر والوحدة ، ولا سيما الوحدة الأيديولوجية والسياسية فى الحزب ، وهو فى هذا يقول :

« على جميع أعضاء الحزب وفروعه أن يناقشوا تعليمات وقرارات اللجنة المركزية ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الأعضاء ، وتنفيذ التعليمات والقرارات ، وتوحيد أذهان الأعضاء وأعمالهم . . . »

وقد عمد الإمبرياليون الفرنسيون ، بعد أن أذهلتهم الحركة الثورية الفييتنامية ، إلى اضطهاد الفييتناميين ومعاملتهم بقسوة ووحشية ، مما تسبب فى حدوث مجازر ، واعتقال عشرات الآلاف من الأفراد ، والزج بهم فى السجون .

وفى الوقت نفسه تحالف الإمبرياليون الفرنسيون مع الحكام الرجعيين فى الصين وسيام، للقضاء على الحركة الثورية ، ثم تواطأوا مع الإمبرياليين البريطانيين لإلقاء القبض على زعيم الحزب « نجوين أى كووك » فى يوم ٥ يونيو سنة ١٩٣١ ، فى هونج كونج حيث كان يقيم باسم مستعار هو « تونج فان صون » . . . وكان من المتفق عليه أن تسلم السلطات البريطانية « نجوين » إلى السلطات الفرنسية لأن المحاكم الاستعمارية فى فييتنام كانت قد حكمت عليه بالإعدام ! .

بيد أن « الدولية الشيوعية » استطاعت ، عن طريق الصليب الأحمر ، أن تستعين بمحام إنجليزى تقدمى يدعى « لوزبى » نجح فى إقناع السلطات البريطانية بإطلاق سراح « نجوين » لأنها سجنته على أساس غير قانونى .واضطر « نجوين» للسفر فوراً إلى « شامين » حيث أنفق بضعة أشهر سافر بعدها إلى شنغهاى .

والتقى « نجوين » فى شنغهاى . خلال نوفمبر من عام ١٩٣٣ ؛ بعضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى يدعى « كوتيرييه » واستطاع بمساعدته استئناف الاتصال بالحزب الشيوعى الصينى ، ثم الرحيل إلى الاتحاد السوفيتى حيث عمل فترة من الزمن فى « معهد الدراسات الوطنية والاستعمارية » التابع « للدولية الشيوعية » . ومن هناك تتبع تطور الأحوال فى الهند الصينية . وقد التحق إذ ذاك بمدرسة لينين ، وهى مدرسة للدراسات العليا مخصصة لزعماء الأحزاب الشقيقة .

ثم عاد « نجوين » إلى الصين لكى يتصل بالحركة فى بلاده ؛ وكان الحزب الشيوعى الصينى يتعاون آنئذ مع الكومنتانج [1] ضد اليابانيين ، وقد أوفد الحزب إلى جنوب الصين بعثة من المستشارين العسكريين لتدريب جنود تشيانج كاى شيك على حرب العصابات . . وجدير بالذكر هنا أن « نجوين » كان سكرتير تلك البعثة التى تولى رياستها قائد

---

(١) حزب تشيانج كاى شيك .

صيني اسمه « بيه شيين يينج » .

وفي تلك الفترة اشتدت حركة النضال المكشوف في فيتنام بزعامة « الحزب » ضد الفاشية، والاستعمار ، والرجعية ، وكان المناضلون الفييتناميون يطالبون بالحقوق الديمقراطية ، وتحسين مستوى المعيشة .

وكان « نجوين » يراقب ، أثناء إقامته في الصين ، الموقف في بلاده . ويرسل إلى اللجنة المركزية للحزب — مستخدماً اسماً مستعاراً هو « ب. ك . لين » — توجيهات وتعليمات ، ويبعث بمقالات إلى صحيفتي « صوتنا » و « العمل » اللتين كان الحزب يشرف على إصدارهما .

وكان يوضح في رسائله إلى اللجنة المركزية للحزب السياسة التي يرى أن اتباعها كفيل بنمو الحركة الثورية . وفيما يلي نبسط من تلك الرسائل الفقرات الهامة التالية(١) :

١ — لا يسع الحزب ، في الوقت الراهن ، أن يقدم مطالب كبيرة (كالاستقلال الوطني ، والبرلمان إلخ . . . إلخ . . .) لأنه إذا فعل ذلك وقع في شرك الفاشيين اليابانيين .

يجب علينا ، في هذا الوقت ، أن نكتفي بالمطالبة بالحقوق المدنية ، وحرية إنشاء المنظمات والهيئات وحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة ، وحرية القول والرأي ، والعفو العام عن السجناء السياسيين . وينبغي لنا أن نكافح لحمل السلطات على الاعتراف بشرعية الحزب .

٢ — ولكي نبلغ الهدف سالف الذكر يتعين علينا أن نبذل كل ما في وسعنا من جهد لتنمية الجبهة الديمقراطية .

وهذه الجبهة لا تشمل الصينيين الهنود فحسب ، بل تشمل كذلك الفرنسيين التقدميين . . . لا العمال فقط ، بل كذلك البورجوازية الوطنية .

٣ — وحيال البورجوازية ينبغي أن يكون مسلك الحزب واضحاً

---

(١) من تقرير إلى " الدولية الشيوعية " — يوليو سنة ١٩٣٩ .

ومرناً ، وأن يحاول جذب أفرادها إلى الجبهة ، وكسب العناصر التى يمكن كسبها ، وتحييد من يمكن تحييدهم ، لتجنب بقائهم خارج الجبهة .

٤ – لا يمكن التحالف مع التروتسكيين ، أو التساهل معهم . ولا بد من استخدام كل الوسائل لانتزاع أقنعتهم بوصفهم جلادين وفاشيين .

٥ – يجب على الجبهة الديمقراطية – لكى تضاعف قواها ، وتوسع نطاق نفوذها ، وتجعل أعمالها ذات فاعلية – أن تكون على اتصال وثيق بالجبهة الشعبية فى فرنسا ، لأن تلك الجبهة تناضل ، هى الأخرى ، فى سبيل الحرية والديمقراطية ، وفى مقدورها أن تمدنا بعون كبير .

٦ – على الحزب أن يمتنع عن إكراه "الجبهة" على الاعتراف بزعامته ، ولكن ينبغى له أن يظهر نفسه كأخلص وأشد الأقسام فاعلية ، وأن يكون على استعداد لبذل أعظم التضحيات . ولن تعترف الجماهير بالحزب كزعيم لها إلا إذا حرص على الاضطلاع بنضاله اليومى .

٧ – وللقيام بهذه المهمة يتحتم على الحزب أن يكافح التفكير القائم على ضيق الأفق والطائفية . ولا بد له من دراسة الماركسية – اللينينية ، ورفع مستوى "كادراته" وأعضائه ، وتوثيق صلاته بالحزب الشيوعى الفرنسى .

٨– وعلى اللجنة التنفيذية المركزية أن تشرف على صحافة الحزب لتجنب الأخطاء فى الاستراتيجية والتاكتيك . . . »

* * *

ولكن بينما كانت حركة « الجبهة الديمقراطية » تزداد اتساعاً إذا بحكومة الجبهة الشعبية الفرنسية تسقط ، واندلع لهيب الحرب العالمية الثانية . وابتداء من ذلك الوقت راح الاستعماريون الرجعيون الفرنسيون يفعلون كل ما فى وسعهم ، ويستخدمون شتى الوسائل العنيفة لقمع الثورة الفييتنامية . ومن ثم اضطر « الحزب » إلى التوارى عن الأنظار ، والعمل سرّاً .

وعقدت اللجنة المركزية للحزب دورتها السادسة فى شهر نوفمبر عن عام ١٩٣٩ . وقررت توجيه الثورة ضد الفاشية . وأسست « الجبهة القومية المعادية للاستعمار فى الهند الصينية » .

واستطاع « نجوين أى كووك » الاتصال باثنين من المناضلين فى إقليم يونان الصينى هما « فونج شى كيين » و « هوانج فان هوان » ، وتمكن بواسطتهما من الاتصال بـ « الحزب » فى فيتنام ، بعد أن ظل فترة من الزمن عاجزاً عن معرفة أى شىء عنه .

وفى مدينة « كونمنج » الصينية دعا إلى تعزيز وتنمية منظمتين هما : رابطة تحرير فيتنام، ورابطة تأييد الصين ضد اليابان . . . وذلك لتقوية الوعى السياسى فى أذهان الفيتناميين المقيمين فى الصين ، وتعزيز أواصر التضامن والتضافر بين الشعبين الفيتنامى والصينى .

وغنى عن الذكر هنا أن نشاط « نجوين » ورفاقه فى الصين كان له تأثير طيب فى نفوس الصينيين ، مما أدى إلى التحاق عدد غير قليل من « الكادرات » الفيتناميين بالكليات العسكرية الصينية .

* * *

وفى شهر يونيو من عام ١٩٤٠ احتلت القوات الهتلرية باريس ، واستسلمت البورجوازية الرجعية الفرنسية للمعتدين ، واستبد الاضطراب بالحكام الفرنسيين فى كل أنحاء الهند الصينية ، وأصابهم الذهول .

وعندئذ رأى « نجوين » أن الفرصة الذهبية التى كان يترقبها حانت ، فأصدر على الفور تعليماته إلى « الكادرات » التى كانت تعمل بهمة ونشاط فى الصين ، بالعودة فى أسرع وقت إلى فيتنام لقيادة الحركة .

ولكن حدث فى شهر سبتمبر من العام نفسه أن نزلت القوات اليابانية على سواحل الهند الصينية ، فما كان من المستعمرين الفرنسيين إلا أن تخاذلوا — بطبيعة الحال — أمام القواد اليابانيين وسلموهم البلاد فى ذلة ومسكنة ! .

وهكذا أضحت فييتنام تئن تحت نير مزدوج : وضغط ذي جانبين ، غير أن هذا كله لم يفت فى عضد الشعب الفييتنامى . وآية ذلك أن أهالى إقليم « باك صون » ثاروا ثورة عارمة بعد شهرين فقط — أى فى شهر نوفمبر من العام نفسه — وحدث الشيء نفسه فى فييتنام الجنوبية ، ولكن الفرنسيين تمكنوا من إخماد تلك الثورات بوسائل ملؤها القسوة والعنف .

وفى تلك الأثناء عاد «نجوين أى كووك» مع عدد من «الكادرات» إلى أرض الوطن بعد ثلاثين عاما قضاها فى المنفى، وآثر أن يقيم مقر قيادة فى مدينة «باك بو» فى إقليم «كاوبانج»

وقد استهل نشاطه فى تلك القاعدة بأن نظم دراسات تدريبية لل « كادرات » ، ثم أوفدهم إلى القرى لتأليب الأهالى ضد السلطات الاستعمارية ، وبدأ يشرف شخصياً على إصدار صحيفة « فييتنام » المستقلة ، ويكتب فيها فصولا نارية تحض الشعب على الثورة .

وإن هى إلا بضعة أشهر حتى ازدادت الحركة قوة واتساعاً فى إقليم « كاوبانج » بفضل براعته فى تنظيم الدعاية . وبعد أن أنفق بضعة أشهر فى إنشاء قواعد جديدة ، وتنظيم الجمعيات المتفرعة عن الحركة : دعا فى شهر مايو من عام ١٩٤١ — اللجنة المركزية لعقد دورتها الثامنة فى « باك بو » ، وكان الرأى عند أعضاء اللجنة أن الصدام بين شعب الهند الصينية والإمبرياليين المعتدين هو الصدام الرئيسى ، ومن ثم قرروا إعداد العدة للتمرد المسلح ، وإنشاء قواعد لحرب العصابات .

وخلال تلك الدورة تنبأ « نجوين » بأن ألمانيا الفاشية ستغزو الاتحاد السوفييتى (قال ذلك فى مايو سنة ١٩٤١) ،وهاجمت القوات الهتلرية الاتحاد السوفييتى فى الشهر التالى . وتنبأ ، فى الوقت نفسه ، بأن الاتحاد السوفييتى سينتصر على قوات هتلر ، وبأن عدة دول اشتراكية ستظهر إلى الوجود .

ورأت اللجنة المركزية إنشاء « جبهة العمل لاستقلال فيتنام » وذلك رغبة منها فى حشد أكبر عدد مستطاع من أهالى البلاد لمناهضة الفرنسيين واليابانيين . وفى يوم ١٩ مايو سنة ١٩٤١ ، تأسست الجبهة رسمياً ، ورؤى أن يختصر اسمها بالفيتنامية إلى « فييت منه » .

وكتب « نجوين » آنئذ نداء جاء فيه ما يلى :

« لقد انهارت قوة فرنسا بعد أن هزمتها ألمانيا . على أن الأمر الذى يهم شعبنا هو أن الاستعماريين الفرنسيين ما فتئوا يقومون بمناورات أساسها السياسات الفوارة بالقسوة، مستهدفين بها الاضطهاد ، والتعذيب ، والقتل الجماعى » .

« . . . لقد قسموا أرضنا ، وهم راكعون ، فأعطوا جزءاً منها لـ "سيام" ، وسلموا بلادنا لليابانيين . ومن ثم فإن شعبنا يئن تحت ضغط مزدوج : إن أفراد شعبنا يعدون جياداً وثيراناً للفرنسيين اللصوص ، وعبيداً للقراصنة اليابانيين . . . ما الذى فعله شعبنا ليواجه هذه الشرور ؟

« . . . هل يقبل شعبنا أن يظل مقيد الأيدى ، وأن يموت فى هذه الحال التى تدعو إلى الرثاء ؟ كلا! كلا.. بكل تأكيد! إن أكثر من عشرين مليوناً من أبناء وبنات ! « لاك هونج » — السلف الأسطورى لشعب فييتنام — مصممون على ألا يعيشوا فى ظل العبودية ، فى الأعوام الثمانين الماضية لم تكف عن بذل التضحيات ، مناضلين فى سبيل استقلالنا الوطنى وحريتنا ، على الرغم من أننا كنا نعيش تحت النعال الحديدية لعصابات الفرنسيين » .

ومضى « نجوين » يقول فى ندائه :

« . . . لقد حانت فرصة التحرر الوطنى ، ففرنسا لم تعد قادرة على حكم بلادنا ، واليابانيون لا يسعهم أن يستخدموا كل قواتهم ضدنا ، لأنهم يواجهون مقاومة عنيفة فى الصين ، ولأن « الحلفاء » يقفون لهم بالمرصاد . فإذا اتحدت بلادنا كلها ، واتحدت أذهاننا ، استطعنا —

يقيناً ــ أن نمزق الجيوش الفرنسية واليابانية إرباً إرباً . . . »

إلى أن قال :

« هبوا بسرعة . . . أيها المواطنون فى كل أنحاء البلاد ! لنقتد بالشعب الصينى البطل ! ولننهض بسرعة مستهدفين تنظيم "هيئات الإنقاذ الوطنية" لإنزال الهزيمة بالفرنسيين واليابانيين »(١).

* (١) راجع "كتابات هوشى منه المختارة" ــ طبعة "هانوى" الفرنسية .

الفصل التاسع

الشعب يحطم أغلاله

فى منتصف عام ١٩٤٢ سافر « نجوين أى كووك » إلى الصين لدراسة مقومات الثورة الصينية وأبعادها ، ولكنه ما كاد يجتاز الحدود حتى ألقى رجال « تشيانج كاى شيك » القبض عليه وسجنوه فى « تسينج سى ».

وعلى الفور قرر الحزب الشيوعى الفييتنامى الاحتجاج على ذلك ، فأصدر عدداً خاصاً من مجلة « الاستقلال » باللغات الفييتنامية ، والصينية ، والفرنسية ، وأرسل نسخاً إلى الساسة الصينيين ، وإلى أقطاب المنظمات الديمقراطية مناشداً إياهم العمل على إطلاق سراح « نجوين » الذى أصبح اسمه وقتئذ « هوشى منه »[١] .

ولقد أمضى « هوشى منه » وقته — خلال العامين اللذين قضاهما فى سجون تشيانج كاى شيك ، ولقى فيهما صنوفاً من العذاب — فى نظم « مذكرات فى السجن » ، وهو ديوان يضم بين برديه أكثر من مائة قصيدة تفيض وطنية ، وشجاعة ثورية ، وثقة لا حد لها بقدرة الشعب الفييتنامى على إحراز النصر . . .

ولم يكد يخرج من السجن حتى أسرع فى العودة إلى الوطن ومعه عدد من الشبان الفييتناميين الذين أتموا تدريبهم العسكرى فى الصين .

---

(١) راجع "الرئيس هوشى منه" تأليف " فام فان دونج " واللجنة المتخصصة فى دراسة تاريخ حزب العمال الفييتنامى (ص ٧٧).

ومما يذكر هنا أنه حين حل عام ١٩٤٤ كانت الحركة الثورية فى فيتنام قد نمت نمواً سريعاً ، وتعاظمت قوتها . وكان نفوذ « جبهة الفييت منه » قد شمل كل أرجاء البلاد ، وكان « الحزب » قد نجح فى إقامة جمعيات « للخلاص الوطنى » فى كثير من المناطق . وفى قواعد « باك صون » و « فونهاى » و « كاوبانج » وفقت الحركة الثورية فى اجتذاب الأهالى جميعاً إليها ، وشرعت تحول جهودها إلى حرب العصابات . وبدأت قاعدة « كاوبانج » وقتئذ تستعد للقيام بحركة تمرد .

وطفق « هوشى منه » ، بعد عودته إلى « كاوبانج » ، يدرس الموقف ، ولكنه سرعان ما قرر إرجاء التمرد على الرغم من أن « كاوبانج » كانت متأهبة له ، وذلك لسببين رئيسيين هما[1] :

١ — إن القرار الخاص بحركة التمرد اتخذ فقط على أساس الموقف فى أقاليم « كاوبانج » و « باك كان » و « لانج صون » ، لا على أساس الموقف فى أنحاء البلاد كافة .

٢ — إن شن حرب عصابات فى تلك الظروف على نطاق بهذا الاتساع — على نحو ما قررت اللجنة الإقليمية المشتركة — سيبوء بالفشل ، ذلك لأن الإمبرياليين سيركزون كل قواتهم لقمعها . وفى هذا قال هوشى منه : يجب علينا أن نهتدى إلى أشكال أخرى للصراع المسلح تكون أكثر مرونة . ولا شك أن النشاط السياسى أهم من النشاط العسكرى لدفع الحركة إلى الأمام حتى يتسنى لنا أن ندعم قواعدنا السياسية أولا »

ثم قال :

« إن فترة النمو السلمى للثورة قد انتهت ، على أن وقت قيام الشعب كله بتمرد عام لم يحن بعد . ومن ثم فإن طاقتنا لن تكون قوية على نحو

---

(١) راجع كتاب " قوات التحرير " تأليف " نجوين جياب " أستاذ أساتذة حرب العصابات — ١٩٤٧ .

يكفى لتقدم الحركة إذا اقتصر نشاطنا على الميدان السياسى وحده . ولكن إذا أشعلنا حركة التمرد العام على الفور فإن العدو سيجرنا إلى طريق مسدود » .

« لقد انتقل النضال من شكله السياسى البحت إلى شكل عسكرى . بيد أن الشكل السياسى ما برح ، فى الوقت الحاضر ، أهم من الشكل العسكرى . ولا بد من اكتشاف شكل يكفل لنا النجاح » .

ثم أصدر تعلياته بإنشاء وحدة للدعاية العسكرية ، وفى هذا قال :

١ — إن اسم « وحدة دعاية شعب فييتنام للتحرر الوطنى » معناه أن النشاط السياسى أهم من النشاط العسكرى . ولكن لكى تستطيع هذه الوحدة الاضطلاع بمهامها على نحو فعال فى الميدان العسكرى فلا بد لها من أن تعمل على أساس مبدأ رئيسى هو حشد القوى . وطبقاً للتعليمات الجديدة يجب اختيار أشد الكادرات والجنود تحمساً وتصميماً من بين صفوف وحدات حرب العصابات فى « كاوبانج » و « باك كان » و « لونج صون » .

« وما دامت مقاومتنا هى مقاومة يسهم فيها الشعب كله ؛ فإن الواجب يقضى علينا بأن نسلح الأمة كلها ، ولهذا يجب علينا ونحن نحشد القوات ، أن نضع خطة لتوزيعها على كل المناطق ، ونتخذ من التدابير ما يكفل التعاون التام بين كل الوحدات المسلحة . والمهمة الكبيرة التى ينبغى للقوة الرئيسية القيام بها هى توجيه الكادرات العسكرية المحلية ، وتدريبهم ، ومدهم بالأسلحة كلما كان ذلك ميسوراً .

٢ — وفيما يتعلق بالوحدات المسلحة المحلية ينبغى إرسال الكادرات المحليين إلى بلادهم ليتولوا أعمال التدريب ، وإرسال كادرات مدربين إلى كل مكان ليتبادلوا الخبرة ، وينظموا الاتصالات ، وينسقوا القتال .

٣ — وفيما يتعلق بالتكتيك يجب الاعتماد على حرب العصابات ، وإحاطة كل شىء بالسرية التامة ، وتوخى السرعة ، وبذل قصارى الجهد

هنا وهناك، وأن يحرص كل رجل فى حركتنا على أن يظل متوارياً عن الأنظار .

وهكذا استطاع « هوشى منه » ، بهذه السياسة البعيدة النظر . تجنب القيام بتمرد سابق لأوانه فى « كاوبانج » . وتوجيه الحركة فى كل أنحاء البلاد توجيهاً سلميا : أى الاستعداد بهمة ونشاط للقيام بتمرد عام . وتوسيع نطاق النضال المسلح ، وبهذا تهيأ الأوضاع الملائمة . والظروف المواتية للتمرد الجامع المانع . والواقع أن « وحدة دعاية شعب فييتنام للتحرر الوطنى » كانت سلفاً للجيش الشعبي الفييتنامى .

* * *

وفى أواخر سنة ١٩٤٤ سافر « هوشى منه » إلى الصين مرة أخرى . واتجه لفوره إلى « كونمنج » لينشئ علاقات مع « الحلفاء » استعداداً لمحاربة اليابانيين .

وعند ما عاد إلى الوطن كانت قد طرأت على الموقف تغييرات ذات بال . فلقد حدث — كما توقعت اللجنة المركزية للحزب — أن قام اليابانيون بحركة عسكرية عنيفة فى التاسع من شهر مارس عام ١٩٤٥ ؛ فما كان من الفرنسيين إلا أن ركعوا على ركبهم واستسلموا صاغرين ! .

وفى مساء ذلك اليوم نفسه عقد المكتب الدائم للجنة المركزية اجتماعاً كبيراً فى قرية « دينه بانج » بإقليم « باك نينه » ، وكان الرأى عند المجتمعين أن الحركة العنيفة التى قام بها اليابانيون لاتعدو أن تكون نصرا مؤقتاً ، وأنهم سيمنون بهزيمة ماحقة فى نهاية الأمر ، ذلك أن من شأن تلك الحركة أن تحدث أزمة سياسية تهيئ الجو لنضج حركة التمرد المسلح الذى اعتزم الشعب الفييتنامى القيام بها .

كذلك كان الرأى عند المجتمعين أن تلك الفترة كانت فترة الانطلاق فى التأهب لحركة التمرد ، وأن أمام الحزب مهمة عاجلة لا معدى له عن الاضطلاع بها هى قيادة الشعب كله ، وتحريكه فى اتجاه التمرد العام .

وقد شرع الحزب فى القيام بتلك المهمة بسرعة مذهلة ، واستطاع أن يوسع نطاق حركة نضال الجماهير ، مما تسبب فى إضعاف نفوذ الفاشيين اليابانيين وحكومة « ترانج ترونج كيم » الموالية لهم ، وإفلات زمام الموقف من أيديهم جميعاً على الرغم مما بذلوه من جهود جبارة لقمع الحركة بأساليب أقل ما يمكن أن يقال فى وصفها أنها كانت غاية فى الوحشية .

وفى غضون ذلك قرر « هوشى منه » دعوة المؤتمر القومى للحزب ، والمؤتمر الشعبى ، إلى الانعقاد على عجل ، بعد أن استسلمت ألمانيا وإيطاليا الفاشيتان ، بفضل الهجمات العاصفة التى شنتها وقتذاك جيوش « الحلفاء » والاتحاد السوفييتى ، وبعد أن أيقن أن ضربة ساحقة ستسدد إلى اليابان فى المحيط الهادى وآسيا إن عاجلا أو آجلا .

وعقد المؤتمر القومى للحزب فى ١٣ ، ١٤ ، ١٥ أغسطس من العام نفسه فى مدينة « تويين كوانج » ، وقرر القيام بالتمرد العام ، ووضع لذلك ثلاثة مبادئ هى : الحشد ، والوحدة ، وحسن التوقيت.

وقال المؤتمرون إنه لابد من أن تحتشد القوات فى المراكز الهامة ، وأن يكون ثمة تنسيق بين النشاط السياسى والنشاط العسكرى ، وأن تتخذ كل الإجراءات الكفيلة بحمل العدو على الاستسلام قبل أن يتعرض لهجمات الوحدات الفييتنامية .

ووافق المؤتمر على العلم الوطنى والنشيد الوطنى اللذين عرضا عليه ، وعلى مقومات جمهورية فييتنام الديمقراطية ، وعلى المبادئ السياسية العشرة التى وضعتها « جبهة فييت منه » ، وعدها السياسات الأساسية للحزب وللشعب كله .

وفى الميدان الدبلوماسى دعا المؤتمر إلى الإفادة التامة من المتناقضات الماثلة بين بريطانيا وفرنسا ، والولايات المتحدة وبين تشيانج كاى شيك ،

وتجنب الوصول إلى موقف تضطر معه فييتنام إلى مواجهة عدة أعداء فى وقت واحد .

كذلك أوصى المؤتمر بتحطيم المناورات التى كانت تقوم بها فرنسا للعودة إلى البلاد ، والقضاء على الخطة الخبيثة التى وضعها تشيانج كاى شيك لتحويل فييتنام إلى بلد تابع له ، والعمل على كسب ود الاتحاد السوفييتى ، والحرص على التقرب إلى الشعبين الفرنسى والصينى .

وفى يومى ١٥ ، ١٦ أغسطس من عام ١٩٤٥ انعقد المؤتمر الشعبى فى مدينة « تان تراو » بإقليم « توين كوانج » وانتخب أعضاء لجنة التحرير الوطنى التى أصبحت حكومة مؤقتة ، كما انتخب بإجماع الأصوات « هوشى منه » رئيساً للدولة .

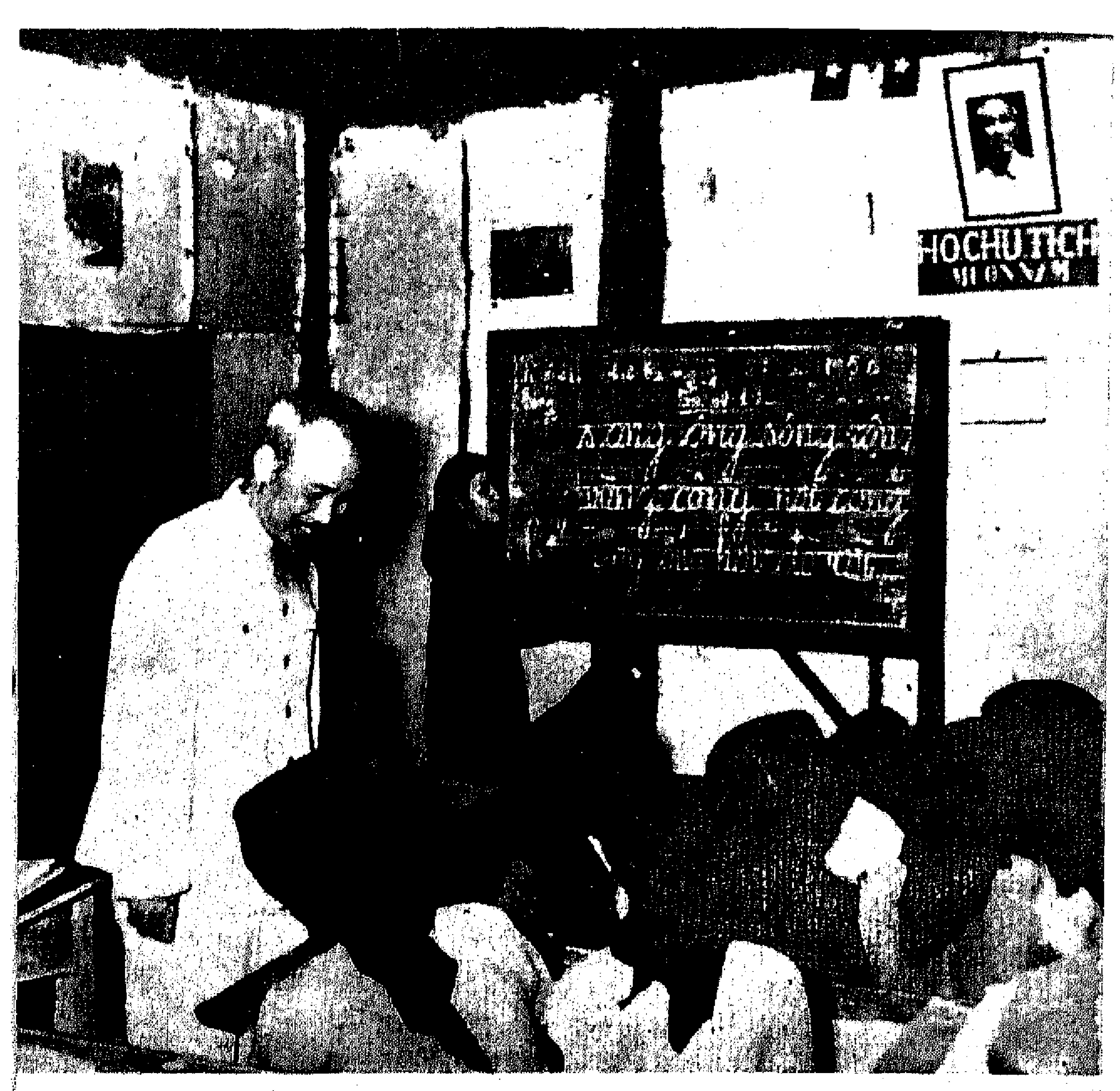
ووجه « هوشى منه » إلى الشعب نداء ناشده فيه القيام بالتمرد العام قائلا :

« لقد دقت الساعة الحاسمة فى مصير الأمة . أيها المواطنون فى كل أرجاء البلاد . . . لنهب جميعاً بكل قوتنا كى نحرر أنفسنا » .

وحانت الفرصة . . .

فقد استسلم الفاشيون اليابانيون فى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ . واستجاب الشعب بأسره للنداء ، وكان أشبه بفيضان عارم يحطم كل ما يصادفه من جسور . وثار الأهالى فى كل مكان . . فى الشمال والجنوب ، فى المدن والقرى ، فى السهول والمناطق الجبلية .

وفى خلال اثنى عشر يوماً فقط سجلت حركة التمرد نجاحاً قل أن يكون له نظير ، فقد تكتل الشعب وأصبح كالبنيان المرصوص استجابة منه للنداء الحار الذى وجهه إليه « هوشى منه » ، وبفضل التوقيت الدقيق الذى حرصت عليه اللجنة المركزية للحزب . وقد استطاعت تلك الكتلة البشرية أن تحطم حكم الاستعماريين والإقطاعيين ، وأصبحت سنداً للقوة الثورية .



كان الرئيس هوشي منه يحرص على أن يشرف
بنفسه على تنفيذ برنامج محو الأمية . . .

وفى اليوم الثانى من سبتمبر وقف « هوشى منه » فى ميدان « بادينه » بمدينة هانوى ، وتلا ، بالنيابة عن جمهورية فييتنام الديمقراطية ، « تصريح الاستقلال » التاريخى التالى :

« لقد لاذ الفرنسيون بالفرار ، واستسلم اليابانيون ، وتنازل الإمبراطور باوداى عن العرش ، وحطم شعبنا الأغلال التى قيدته طوال ربع قرن تقريباً وظفر بالاستقلال للوطن . وفى الوقت ذاته أسقط شعبنا النظام الملكى الذى ظل يحكمنا عشرات من القرون ، وأنشأ بدلا منه جمهوريتنا الديمقراطية » .

ومضى يقول :

« إن من حق فييتنام أن يكون بلداً حرًّا ومستقلا ، وهو كذلك الآن . ولقد صمم الشعب الفييتنامى عن بكرة أبيه على تعبئة كل قوته المادية والذهنية ، والتضحية بأرواحه وممتلكاته فى سبيل صون استقلاله وحريته » .

ثم قال :

« لأول مرة فى التاريخ الثورى للشعوب المستعمرة ونصف المستعمرة استطاع حزب — بعد خمسة عشر عاماً فقط من إنشائه — أن يقود الثورة إلى النصر ، وأن يقبض على السلطة فى كل أنحاء البلاد » .

* * *

على هذا النحو المثير استطاع الشعب الفييتنامى ، بمثابرته المثالية ، ونضاله المستمر ، وأعماله البطولية ، أن يفتح صفحة جديدة فى تاريخه ، وأن يصبح سيد بلاده ، وأن ينشئ أول ديمقراطية شعبية فى مستعمرة سابقة برياسة « هوشى منه » .

وهنا يجدر بنا أن نترك الكلمة لـ « نجوين مانه ها » رئيس جمعية

الطلبة الكاثوليك الذى اختير وزيراً للاقتصاد فى أول حكومة فييتنامية بعد الاستقلال :

« كنا نعتقد أن "هوشى منه" هذا ، الذى قيل لنا إنه زعيم حركة التمرد لم يكن إلا "نجوين أى كووك" ، ذلك الرجل الثورى الذى كان مجرد ذكر اسمه يثير فى نفوس الشباب حماساً شديداً . . . وكان "جياب" الذى عرفناه فى الجامعة ، والذى أصبح ، فيما بدا لنا ، محرك التمرد منذ يوم ٢٠ أغسطس ، يجمعنا فى الساعة الثامنة والنصف من مساء كل يوم ليسدى إلينا ما نحتاج إليه من "نصائح محدودة" ، ويتحدث معنا عن الشئون العامة » .

« وقال لنا فى إحدى الليالى : « سيكون هوشى منه هنا مساء غد » . كان ذلك فى يوم ٢٥ أو ٢٦ أغسطس » .

« وفى اليوم التالى بينما كنا نتبادل أطراف الحديث فى الأروقة رأينا شخصاً غريباً يتقدم نحونا : كان يرتدى بنطلوناً قصيراً "شورت" وفى يده عصا ، وعلى رأسه قبعة لونها رمادى "من النوع الذى كان يستخدمه الجنود الإنجليز فى المستعمرات ، ولهذا تسمى قبعة استعمارية" ، لقد خيل إلينا أنه رجل عجوز يهوى المزاح والتهريج ! . من هو ؟ هل هو "كان بو" أى موجه سياسى قادم من الريف ؟ هل هو مثقف قادم من إحدى الضواحى ؟ ولكن سرعان ما لاحظنا شيئاً أذهلنا ، وجعلنا نعتقد أنه شخص له وزنه : فقد كانت تطل من جيب قميصه علبة سجائر أمريكية . . . وتم التعارف بيننا بسرعة . . . » .

ويمضى « نجوين مانه‌ها » (١) قائلا :

(١) استقال من منصبه فى سنة ١٩٤٦ ، وأقام مدة فى "فنون بنه" ثم سافر إلى باريس حيث أصبح أحد زعماء "حركة" فى سبيل السلام وحياد "فيتنام الجنوبية" .

« كان " هو " لين الجانب ، دمث الأخلاق ، حليم الطبع أثناء جلسات مجلس الوزراء . وفى يوم أول سبتمبر – أى عشية إعلان الاستقلال – جاء معه بورقة كان قد كتب فيها نص البيان الذى أراد توجيهه إلى الشعب فى تلك المناسبة ، وعرض علينا النص ، وقبل ما اقترحنا ادخاله عليه من تعديلات . ولم تكن الموضوعات مثار النقاش عديدة فى المجلس وقتئذ ، قبل أن يشترك فى الحكومة الوطنيون المناهضون للشيوعية » .

« وكان " الفييت منه " يسيطر علينا من عل ، ولم تكن لدينا إلا أشياء قليلة نعترض عليها : وكانت سياسة هوشى منه تقضى أساساً بالتفاهم مع فرنسا لاستبعاد الصينيين عن الموقف ، والحصول – بلا قتال – على الاستقلال فى أقرب فرصة مستطاعة . هل يمكن أن يقال شيء اعتراضاً على ذلك ؟ » .

« غير أن الأمور اضطربت ابتداء من شهر فبراير عام ١٩٤٦ ، حين اضطر إلى أن يشرك فى مجلس الوزراء زعماء الوطنيين المتطرفين . وقد قال لنا يومئذ : من الآن فصاعداً لن تدور المناقشات بين أصدقاء ، وسيكون من الواجب علينا أن نكون حازمين فى موقفنا ، وسيضطر بعض رجالنا إلى إخلاء مقاعدهم » .

« وكان يبكى ويمسح دموعه بمنديل كبير . . . ياله من موقف يهز النفوس . . . »

« ولم أره غاضباً إلا مرتين : المرة الأولى حين ألقى " تران هيوى ليو " وزير الدعاية بياناً حمل فيه بعنف على الفرنسيين ، وأمر بإذاعة البيان بمكبرات الصوت القوية فى شوارع هانوى . وقد ثار هوشى منه على ذلك الوزير أثناء إحدى جلسات مجلس الوزراء ، وأنبه بشدة قائلا : « إذاً . . . أنت تجد لذة فى توجيه السباب إلى الاستعماريين . . . ! ما فائدة ذلك » .

والمرة الثانية التى رأيته فيها غاضباً كانت عند ما اعترف وزير البريد بأنه لا يستطيع إصدار طوابع البريد التى طلبها الرئيس ، فقد صب جام غضبه على ذلك الوزير قائلا : « هكذا . . . إننا نريد الاستقلال ، ولكننا لم نهتم بصنع طابع بريد »[١].

وعند ما ولى رياسة الدولة تساءل كثير من الصحفيين عمن يمكن أن يكون « هوشى منه » هذا ، وأسرعوا إليه يسألونه فأجابهم قائلا :

« أنا رجل ثورى . حين ولدت كانت بلادى تعانى الأمرين من العبودية . ولما بلغت سن المراهقة ناضلت فى سبيل تحرير بلادى . هذا هو كل فضلى . ولهذا اختارنى رفاقى رئيساً . . . » .

وفى شهر سبتمبر من عام ١٩٤٥ وجه إلى الأطفال والشيوخ حديثاً قال فيه :

أبنائى . .

إننا ندخل اليوم ، لأول مرة ، الفصول الدراسية فى جمهورية فيتنام الديمقراطية . . . إن ثمانين سنة من العبودية قد نالت بشدة من بلادنا . . . وواجبنا هو أن نرتفع بالتراث الذى ورثناه عن أسلافنا ، وأن نعوض ما فاتنا بسرعة ، ونلحق ببلاد العالم الأخرى ، هل سيكتب المجد لفيتنام؟ هل سيحتل شعبها مكاناً يتساوى فيه مع شعوب القارات الخمس ؟ إن ذلك يرتهن ، إلى حد كبير ، بالجهود التى ستبذلونها[٢] . .

ثم قال : « إنى أتحدث إليكم الآن بوصفى شيخاً . . . »

---

(١) راجع " هوشى منه " تأليف " جان لاكوتير " ص ٨٨ .

(٢) راجع " كتابات مختارة لهوشى منه " ص ٤٠ .

الفصل العاشر

حرب المقاومة

رأينا فى الفصول السابقة كيف أنشأ الفيتناميون «جمهورية فيتنام الديمقراطية» بما انطوت عليه نفوسهم من قوة معنوية يندر أن يكون لها نظير ، على الرغم من الشدائد والأهوال التى صادفتهم على طول الطريق الشائك الذى قطعوه ليبلغوا هدفهم الأسمى .

ولقد كان من جراء طول المدة التى ناضلوا فيها بغير هوادة أن تدهور اقتصادهم الذى كان متخلفاً إلى حد كبير ، وساءت أحوالهم المعيشية ، ومات زهاء مليونى شخص منهم جوعاً فى ستة أشهر فقط : من يناير سنة ١٩٤٥ حتى يوليو من العام نفسه ، ومما زاد الطين بلة أن المجاعة التى انتشرت فى بعض المناطق اقترنت بفيضانات جد خطيرة .

وفى تلك الأثناء كان الفرنسيون يقومون بمناورات على أكبر جانب من الخطورة آملين أن يعاودوا بسط سيطرتهم وسطوتهم على البلاد . وكان الإمبرياليون الأمريكيون والإنجليز يدبرون فى الخفاء خطة خبيثة تيسر لهم — بما كان لديهم من وسائل عسكرية ضخمة — التدخل فى شئون الجمهورية الوليدة .

كان الموقف خطيراً إلى أقصى حد ، وكان الحفاظ على الجمهورية الفيتنامية الجديدة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى الثورة الفيتنامية . بيد أن الرئيس « هوشى منه » استطاع ، بأعصابه الفولاذية ، أن يواجه الموقف العصيب بهدوء ، ورباطة جأش ، ونظر بعيد ، وأن يحدد لشعبه ثلاث مهام أساسية هى :

محاربة الجوع ، ومحاربة الأمية ، ومحاربة المعتدى .

وقال فى النداء الحار الذى وجهه إلى الشعب مناشداً إياه أن يبذل قصاراه فى سبيل محاربة الجوع :

« لا يسعنا أن نبعد عن أنفسنا التأثر والأسى عندما نتناول طعامنا ونتذكر أولئك الذين يتضورون جوعاً . ولهذا أقترح على مواطنينا ، فى كل أنحاء البلاد ، أن يمتنعوا عن تناول وجبة غذائية كل عشرة أيام ، أى الاستغناء عن ثلاث وجبات فى الشهر ، وسأكون أنا أول من يفعل ذلك ، وسيقدم الأرز المستغنى عنه إلى الفقراء »[١].

ولقد استجاب الأهالى فى كل مكان لذلك النداء المؤثر بسرعة ، وفى الوقت نفسه أحرزت الدعوة لزيادة الإنتاج نجاحاً كبيراً ، وكان الناس ينفذون بدقة الشعار الذى أطلقه « هوشى منه » وهو « إن بوصة من الأرض تمثل بوصة من الذهب » . وإن هى إلا فترة غير طويلة نسبياً حتى تم إصلاح الجسور والمجارى المائية التى تهدمت بفعل المعارك التى خاضها الفييتناميون ضد المستعمرين ، وأمكن إزالة كل أثر للأسباب التى أوشكت ، فى وقت ما ، أن تؤدى إلى مجاعة شاملة ، وأصبح الكفاح ضد الأمية حركة جماهيرية وفقت ، أيما توفيق ، فى القضاء على الجهل .

وكان الرئيس « هوشى منه » ، فى غضون ذلك ، حريصاً أشد الحرص على إرساء الأسس التى تكفل استمرار وحدة الشعب وتضامنه .

فى السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٤٥ أعيد تشكيل لجنة التحرير الوطنية ، واعتبرت حكومة مؤقتة ، وضم إليها ممثلون لطوائف من الشعب لا صلة لها بالحزب أو بجبهة الفيت منه .

وقد أصدرت الحكومة المؤقتة يومئذ بياناً موجهاً إلى الأمة قالت فيه :

---

(١) هوشى منه "كتابات مختارة" .

« تنفيذاً لتعليمات الرئيس هوشى منه قررت لجنة التحرير الوطنية إجراء إصلاح شامل ودعوة عدد من الشخصيات للاشتراك فى الحكومة المؤقتة ، والإسهام فى تحمل الأعباء الضخمة التى عهد بها الشعب إليها ».

وفى يوم ٦ يناير من سنة ١٩٤٦ هرع الفييتناميون جميعاً، وحتى أولئك الذين يقيمون فى المناطق المتعرضة لهجمات الفرنسيين فى الجنوب ، إلى صناديق الاقتراع لانتخاب أعضاء أول جمعية وطنية لجمهورية فييتنام الديمقراطية .

وكان ذلك الإقبال الحماسى على صناديق الاقتراع دليلا ما بعده دليل، على أن الشعب الفييتنامى صمم على أن يظل متحداً، وأن يقف كرجل واحد ضد الاستعماريين ، وأن يظفر بالنصر النهائى.

وقد أقرت الجمعية الوطنية، بعد تكوينها بوقت قليل ، الدستور الجديد، وأصدرت الحكومة عدة قوانين شملت مصالح مختلف فئات الشعب الذى أثبت أنه وصل إلى درجة كبيرة من النضج السياسى .

وكانت محاربة الغزاة الأجانب أشد المهام التالية إلحاحاً ، فقد اتخذ الفرنسيون من الإمبرياليين البريطانيين والجنود اليابانيين أداة مكنتهم من أن يشعلوا الحرب علناً فى سايجون ، وفى عدة أماكن أخرى فى فييتنام الجنوبية .

وفى الشمال قام مئات الآلاف من جنود تشيانج كاى شيك بعمليات غزو واسعة النطاق ، وجروا وراءهم عصابات الرجعيين من رجال الـ « فييت كوك » — حزب فييتنام الوطنى — والـ « فييت كاش » — جماعة التحرير الفييتنامية — الذين حاولوا ، ما وسعتهم المحاولة ، القضاء على الحزب الشيوعى ، والإطاحة بالحكومة الفييتنامية الجديدة .

وعندئذ تحدث « هوشى منه» إلى الشعب قائلا :

« كونوا مستعدين على الدوام ، ولكن عليكم فى الوقت نفسه أن تلزموا الهدوء ، وتكونوا على استعداد لمواجهة كل الظروف » .

وكان طبيعياً أن تصبح القوات الفرنسية التى قامت بهجوم عام واحتلت البلاد ، العدو الأول للشعب الفييتنامى. وقد دعا هوشى منه إذ ذاك إلى تضييق المتناقضات الداخلية التى نجمت عن مسلك الـ « فييت كوك » والـ « فييت كاش » ، أى العناصر الرجعية التى كانت تعمل لحساب شيانج كاى شيك ، وذلك لحشد كل قوات البلاد لمواجهة الفرنسيين .

وحين صدع تشيانج كاى شيك بأوامر واشنطون ووقع اتفاقاً مع الفرنسيين يسمح لهم بدخول فييتنام الشمالية ، رأى « هوشى منه » أن من الخير كل الخير مهادنة فرنسا ، ومن ثم وقع ، بالنيابة عن حكومة جمهورية فييتنام الديمقراطية ، اتفاقاً تمهيدياً مع الحكومة الفرنسية فى يوم ٦ مارس من العام نفسه .

وكانت النتيجة العملية لذلك الاتفاق الذى سمى «اتفاق الصلح فى سبيل التقدم » ، ولسفر « هوشى منه » وقتئذ إلى فرنسا لإجراء مفاوضات ، أن ظفرت جمهورية فييتنام الديمقراطية بعطف الشعب الفرنسى ، وسائر شعوب العالم .

ولقد نجح الفييتناميون فى إكراه قوات تشيانج كاى شيك على الانسحاب من الشمال . أما زعماء عصابات الرجعيين الذين كانوا يتوارون خلف قوات تشيانج كاى شيك فقد فروا بدورهم خوفاً من حقد الشعب عليهم ، ولجأوا إلى الجانب الفرنسى .

* * *

كان الفييتناميون يريدون السلام ليتمكنوا من بناء بلادهم ، بيد أن الفرنسيين أبوا إلا أن يغزوا البلاد . ومضوا فى تنفيذ خططهم العسكرية دون أن يقيموا وزناً لاتفاق يوم ٦ مارس ، وبعد أن احتلوا « هايفونج » و « لانج صون » فى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، أطلقوا لأنفسهم الحبل

على الغارب ، وقاموا بسلسلة من العمليات الاستفزازية فى قلب « هانوى » نفسها .

وفى يوم ١٧ ديسمبر أطلقوا نيران بنادقهم ومدافعهم الرشاشة فى شارع « بين نينه » فى هانوى ، وقتلوا عدداً كبيراً من الأهالى .

وكان على الشعب الفييتنامى أن يهب ويخوض غمار « حرب المقاومة » ليصون استقلاله . وهكذا بدأ القتال فى سبيل الحياة أو الموت بين الفييتناميين والفرنسيين فى يوم ١٩ ديسمبر .

وفى اليوم التالى وجه « هوشى منه » إلى الشعب نداء هذا نصه :

« إننا نريد السلام ، ولهذا قدمنا « تنازلات » إليهم — يقصد إلى الفرنسيين — ولكنهم كانوا يطمعون فى المزيد لأنهم صمموا على احتلال بلادنا مرة أخرى » .

« كلا . . . إننا نؤثر أن نضحى بكل شىء على أن نفقد بلادنا ، ونصبح عبيداً » .

« أيها المواطنون . . . يجب علينا أن نقاوم ! »

« يجب على كل الفييتناميين ، رجالا ونساء ، شباناً وشيوخاً ، ودون تمييز فى العقيدة أو الاتجاه السياسى ... أن ينتصبوا واقفين ويقاتلوا المستعمرين الفرنسيين ، لإنقاذ الوطن . . .

إن من يملكون بنادق يجب عليهم أن يستخدموها ، ومن يملكون سيوفاً عليهم أن يحاربوا بها ، ومن لا يملكون سيوفاً عليهم أن يستخدموا الفؤوس والعصى ! على كل منا أن يفعل كل ما فى وسعه لمحاربة المستمرين بغية إنقاذ البلاد » .

« وحتى إذا واجهنا صعاباً وآلاماً أثناء « حرب المقاومة » فإن النصر سيكون لنا إذا صممنا على بذل التضحيات » .

« على كل مواطن أن يكون مقاتلا ، وعلى كل قرية أن تتحول إلى معسكر »[١] .

* * *

كان الشعب الفييتنامى قد وطن العزم على الاستمرار فى « حرب المقاومة » حتى النهاية ، وإلى آخر قطرة من دمه . على أن « هوشى منه » أبى إلا أن يؤكد ، فى كل مناسبة مواتية ، أن فييتنام — حكومة وشعباً — تتطلع إلى السلام .

وقد ناشد الحكومة الفرنسية ، أكثر من مرة ، الدخول فى مفاوضات مع الحكومة الفييتنامية ، غير أن قصر نظر الفرنسيين جعلهم يمضون فى القتال .

ومن حسن حظ الشعب الفييتنامى أن الفرنسيين أخطأوا فى حساباتهم ، فلم يلبثوا أن أدركوا أن الفييتناميين يزدادون عنفاً فى « حرب المقاومة » التى يشنونها ، وأنهم بدأوا يسجلون لأنفسهم انتصارات عظيمة يوماً بعد يوم .

وفى هذا قال « هوشى منه » .

« لقد كنا أشبه بمجرى الماء عند منبعه ، أو بشمعة أضيئت منذ دقائق ، فى حين أن العدو كان يفقد قوته ، ويزداد ضعفاً ، ويمنى بالهزيمة تلو الهزيمة . لقد كانوا " يعنى الفرنسيين " كالشمس الغاربة ؟ » .

وفى غضون الأعوام التسعة التى استغرقتها « حرب المقاومة » كان « هوشى منه » مهتما كل الاهتمام بالجنود والفدائيين ورجال حرب العصابات ، أبناء وبنات الأمة الأعزاء .

وفى يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٤٧ وجه إلى « المتطوعين الانتحاريين » فى هانوى نداء هذا نصه :

« إنكم المتطوعون الانتحاريون ، لقد تطوعتم للموت حتى يتمكن وطنكم من أن يعيش . . . وعليكم أن تتذكروا دائماً :

---

(١) هوشى منه " كتابات مختارة " .

١ ــ أن عليكم أن تتصرفوا ببراعة ، وسرعة ، وسرية ، وأن يكون فى مقدوركم أن تتفرقوا أو تتجمعوا ، طبقاً لما تمليه الظروف .

٢ ــ وعليكم أن تزدادوا خبرة وتجربة فى كل ساعة وكل يوم ، وأن تحترسوا من الخونة والجواسيس .

٣ ــ ومن واجبكم أن تكونوا شديدى الحرص ، وأن تفيدوا إلى أقصى حد من الفرص الطيبة التى تسنح لكم .

٤ ــ ويتعين عليكم أن تكونوا متحدين تماماً .

وفى اليوم نفسه بعث « هوشى منه » إلى المؤتمر الوطنى لرجال ونساء الميليشيا ، ورجال الحرس وحرب العصابات ، برسالة هذا نصها :

« فى الجيش. . . ينبغى لنا جميعاً أن نتقاسم الشدائد ، والآلام ، والمسرات . ويجب علينا أن نحرص على النظام ، وأن نكون يقظين ، وأن نعتصم بالهدوء عند ما يكون العدو أمامنا أو على مقربة منا ، وأن نكون ساهرين حين يكون العدو بعيداً » .

« أما فيما يتعلق بالشعب فيجب علينا أن ندافع عنه ، ونساعده ونجعله يضع ثقته فينا ، ويعجب بنا » .

« ويقضى علينا الواجب بأن نقيم قواعد المقاومة فى كل مكان ، وأن نكون نشطين على الدوام » .

« ثم يجب علينا أن نواجه العدو بتصميم وشجاعة ، وأن نضع خططنا ببراعة ، وأن نتقدم دون أن نتقهقر أبداً ، وأن يكون بيننا تنافس على إبادة العدو ، والاستيلاء على أسلحته إلخ إلخ . أما أسرى الحرب فينبغى أن نعاملهم معاملة إنسانية » .

وعرج على مهمة رجال حرب العصابات ، فقال :

« إن قوة حرب العصابات قوة هائلة تخوض غمار حرب التحرير الوطنى . إذا وجد فى الأراضى التى يحتلها العدو رجال عصابات فى كل قرية ، وكل مركز وكل أقليم ، وإذا كان هؤلاء الرجال مترابطين ومنتظمين

على نطاق واسع ، فإن قوة حرب العصابات ستصبح شبكة من الحديد ، وفخا لا بد أن يقع فيه العدو ، ذلك أنه أينما ذهب فإنه سيصطدم دائماً برجال هذه القوة ، وكل ما يفعله سيكون مصيره التخريب » .

إن رجال العصابات سيجعلون جنود العدو مكفوفين مع أن لهم عيوناً تبصر ، وسيصيبونهم بالصمم مع أن لهم آذاناً تسمع ، وبالشلل مع أنهم أصحاء . إن جانباً من قوات العدو سيباد ، شيئاً فشيئاً ، بواسطة رجال العصابات . أما الباقون الذين سيظلون أحياء فإن الذعر سيستبد بقلوبهم حتى ولو سمعوا ريحاً تهب ، أو عصفوراً يغنى ، وفى النهاية سيسحقون جميعاً . . . » .

ولقد أصبحت هذه التعليمات المبادئ التى بنى عليها الجيش الفيتنامى .

ومضى « هوشى منه » فى الاهتمام، إلى أقصى حد ، بتضامن الشعب كله ، ولهذا أنشأ « جبهة ألفييت منه » و « رابطة فييتنام الوطنية » ، وفى سنة ١٩٥١ اندمجت الرابطتان ، بناء على اقتراحه ، فى هيئة واحدة سميت « جبهة فييتنام الوطنية المتحدة » .

ثم ناشد كل فئات الشعب ، دون أن يستثنى أية قوة أو أى فرد ، أن تخوض غمار حرب المقاومة . وتحدث إلى العمال قائلا : إنهم يشكلون الطليعة التى تقود الثورة ، ثم أضاف :

« إن طبقتنا العمالية تدرك أن تحرير أمتنا هو الخطوة الأولى فى سبيل تحريرها هى ، ومن ثم فإن طبقتنا العمالية جديرة بأن تشكل طليعة الأمة » .

وكان طبيعيا مادامت فيتنام بلاداً زراعية أن يقوم الفلاحون بدور رئيسى فى حرب المقاومة ، وأن يضطلعوا بمهام أخرى فى وقت واحد. وقد ذكرهم هوشى منه بأن عليهم أن يمضوا فى الإنتاج على أتم وجه مستطاع ليسهموا فى حرب المقاومة ، قائلا :

إن المقاتلين يحاربون فى جبهات القتال لإنقاذ البلاد ، والفلاحين يبذلون جهوداً فى حقول الأرز ليبنوا البلاد . إن المحاربين لا يدخرون وسعاً فى سبيل الدفاع عن البلاد ، والفلاحين يحاولون ، ماوسعتهم المحاولة ، أن يقدموا يد المساعدة إلى المقاتلين. هناك تباين بين العملين ، بيد أن ثمة تعاوناً بينهما فى الواقع. ومن ثم فإن كلا من الفريقين يضم أبطالا.

ووجه هوشى منه الكلام إلى الأقليات الوطنية قائلا :

إن أرضنا وحكومتنا ملك لنا جميعاً ، ولهذا يجب على كل أقلياتنا الوطنية أن تتضافر وتتحد للدفاع عن الأرض والحكومة .

وتحدث إلى الشيوخ قائلا :

إننا شيوخ ، ولا يسعنا أن نقوم بأعمال مرهقة ، ولكننا إذ نتكىء على عصينا ، سنقود الشبان ونشجعهم ، ونعطيهم كل ما لدينا من خبرة .

وقال موجهاً كلامه إلى النساء(١) .

إن نساءنا يقمن بمهمة عظيمة فى حرب المقاومة العظيمة التى تخوضها الأمة . والأراضى الفييتنامية تزداد جمالا وروعة بفضل الجهود التى تبذلها النساء — الشابات والمسنات — لتجميلها . . . ومهمة النساء فى الوقت الحاضر هى :

١ — توثيق الصلات بين النساء من كل الفئات ، وبين الفييتناميات اللآئى يعشن فى البلاد الشقيقة ، وكل النساء الديمقراطيات فى العالم .

٢ — التنافس على زيادة الإنتاج ، وعلى الاقتصاد فى المصروفات .

٣ — الإسهام بكل حماسة فى شئون الدولة .

٤ — مساعدة الجيش .

٥ — حماية الأطفال .

وقال فى حديث وجهه إلى الشباب :

« إن شعار شبابكم هو يد تحمل علماً أحمر فيه نجمة ذهبية ، ومعنى ذلك أن على الشباب أن يكون قدوة فى العمل ، والدراسة ، وتوفير

---

(١) فى الاحتفال بيوم النساء الدولى فى ٨ مارس سنة ١٩٥٢ .

عوامل التقدم ، وفى الفضائل الثورية . يجب أن يصبح الشباب قوة هائلة فى « حرب المقاومة » ، وإعادة تعمير البلاد ، وأن يكون ، فى الوقت نفسه ، ذا حيوية وقوة معنوية عالية » .

« يتحتم أن تكون لهم روح خلاقة ، وشجاعة ، وحماسة ، وطاقة تمكنهم من التقدم ، والتغلب على الصعاب . . . » .

أما الأطفال فقد خاطبهم « هوشى منه » قائلا :

« يجب أن تفعلوا كل ما يفيد « حرب المقامة » والوطن . . . إنكم صغار ، ولا يسعكم إلا أن تقوموا بمهام صغيرة . ولكن إذا تعددت المهام الصغيرة أصبحت مهمة كبيرة » .

وقال فى وصف بطولة أهالى فييتنام الجنوبية :

« إن مواطنينا فى فييتنام الجنوبية — الذين يحاربون ببطولة — هم جزء لا يتجزأ من الشعب الفييتنامى . إن الأنهار قد تجف ، والجبال قد تزول ، ولكن هذه الحقيقة لا يمكن أن تتغير . . .

إنهم يناضلون منذ أمد بعيد ، وقد بذلوا تضحيات ضخمة . . . وأعمالهم البطولية أصبحت أمثلة تحتذى بواسطة مواطنيهم فى شتى أرجاء البلاد » .

* * *

وغنى عن الذكر أن صوت « هوشى منه » كان يتغلغل فى أعماق القلوب ، وبفضل ذلك أصبح الشعب الفييتنامى صلباً كالصخرة ، قويا كالحصن ، ومن ثم لم تفلح كل المناورات الخبيثة التى قام بها الاستعماريون الفرنسيون والإمبرياليون الأمريكيون لبذر بذور التفرقة والانقسام والتمزق ، وفشلت محاولاتهم لإنشاء دويلات ذوات حكم ذاتى ، واستعداء الكاثوليك والبوذيين ، وحمل الفييتناميين على محاربة الفييتناميين .

ومن الثابت المحقق أن « هوشى منه » كان يدرك إدراكاً عميقاً ، القوة الخلاقة التى تنطوى عليها نفوس الجماهير الثورية ، فبعد أن أسفرت

« حرب المقاومة » عن إحراز انتصارات ذات بال فى « فييت باك » — أقصى الشمال فى فييتنام — خلال سنة ١٩٤٧ — دعا إلى التنافس الوطنى قائلا :

كل شخص يجب أن ينافس غيره .
ويجب أن يكون ثمة تنافس بين كل فرع .
تنافسوا يوميا .
سننتصر ما فى ذلك شك .
وسيمنى العدو بالهزيمة حتماً .

وحث الأهالى على أن يضاعفوا جهودهم ، ويعملوا بسرعة ، ويتفوقوا على أنفسهم ، ليتمكنوا من المضى فى « حرب المقاومة » على أتم وجه ، ويعيدوا بناء البلاد .

واستجاب الشعب لذلك النداء على الفور .

فنى ساحة الوغى كان الجنود الفييتناميون يتنافسون فى إبادة العدو ، وإحراز انتصارات مثيرة . وفى المؤخرة كان الأهالى يعملون على أساس أن مزارع الأرز هي جبهات قتال ، وأن المحاريث هى أسلحة ، وأن الفلاحين مقاتلون ، وأن الخط الخلفى يتنافس مع الخطوط الأمامية .

على هذا النحو أضحت حركة التنافس الوطنى على خوض غمار « حرب المقاومة » ، وعلى إعادة تعمير البلاد فى الوقت ذاته ، حركة جماهيرية تلقائية ، وغدا كل فييتنامى مقاتلا فى واحدة من الجبهات العسكرية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية .

ومما يدعو إلى الإعجاب حقا أن تلك الحركة التنافسية تطورت إلى قوة دافعة كفلت لرجال « حرب المقاومة » النصر تلو النصر ! .

الفصل الحادى عشر

ديان بيان فو

فى غضون سنة ١٩٤٩ بدأت الثورة الصينية تتقدم صوب النصر النهائى ، فعلى الرغم من المساعدات الضخمة التى كان يتلقاها تشيانج كاى شيك من الولايات المتحدة ، منيت قواته بسلسلة من الهزائم المنكرة ، واستطاع جيش التحرير الصينى ، بزعامة الحزب الشيوعى الذى يرأسه ماوتسى تونج أن يحرر أولا المناطق الشمالية الغربية ، ثم بكين وشنغهاى ، وأن يجتاز نهر يانجتسى ، وبعد أن حرر نانكين ومناطق الصين الجنوبية ، زحف حتى أصبح على مقربة من الحدود الصينية الفييتنامية . وإن هى إلا فترة وجيزة بعد ذلك حتى اكتسح جيش التحرير قوات تشيانج كاى شيك وأكرهها على التقهقر والانسحاب من الأراضى الصينية .

وفى يوم أول أكتوبر من العام نفسه تأسست جمهورية الصين الشعبية . وكان للنجاح العظيم الذى سجلته الثورة الصينية مغزى قوى بعيد المدى ، إذ أنها كانت تمثل الحدث التاريخى الثانى من حيث الأهمية الدولية بعد ثورة أكتوبر الروسية.

وكان طبيعيا أن يثير نجاح الثورة الصينية حماساً ما بعده حماس فى نفوس رجال « حرب المقاومة » فى فييتنام ، وأن يحرك أقوى المشاعر الوطنية فى نفوس الشعوب الآسيوية التى كانت تتطلع إلى الاستقلال والحرية .

وهكذا انتهى العهد الذى كانت الدول الاستعمارية تقرر فيه مستقبل ومصير بلدان الشرق الأقصى .

وفى شهر يناير سنة ١٩٥٠ اعترفت حكومات الاتحاد السوفيتى ، والصين ، وغيرهما من الدول الاشتراكية بحكومة جمهورية فيتنام الشعبية . وفى الوقت نفسه لقيت « حرب المقاومة » الفيتنامية تأييداً شعبيا فى فرنسا نفسها ، وفى بلدان عديدة فى شتى أنحاء العالم .

وفى شهر أكتوبر من العام ذاته قررت اللجنة المركزية « للحزب » الفيتنامى الشروع فى تنظيم عملية عسكرية عند مناطق الحدود . وأصدر « هوشى منه » تعليمات إلى الجيش قال فيها :

« إن حملة " كاوباك لانج " على أعظم جانب من الأهمية ، ونحن مصممون على كسب هذه المعركة ،

« ولكى نكسب هذه المعركة يجب على المقاتلين فى هذه الجبهة أن يكونوا شجعاناً مائة فى المائة . وعلى الذين يعملون فى مختلف المناطق ، وفى ميادين القتال ، أن يفعلوا كل ما فى وسعهم فى سبيل التنافس فيما بينهم على إبادة العدو ، وإحراز انتصارات عسكرية . . . وبذلك يمنعون العدو من إنقاذ رجاله الذين يحاربون فى جبهة كاوباك لانج » .

وذهب « هوشى منه » بنفسه إلى جبهة القتال لتشجيع المقاتلين ، وحثهم على إنزال أقسى الهزائم بالعدو ، وكان لأحاديثه معهم فعل السحر ، إذ لم تمض فترة وجيزة حتى ظفروا بنصر مبين فى جبهة « كاوباك لانج » بعد أن جشموا العدو خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، ثم استطاعوا أن يحرروا خمسة أقاليم بما أبدوه من بسالة مثالية . وكان من أثر تحرير مناطق الحدود أن تم الاتصال بين فيتنام وبين دول العالم الاشتراكى .

وفى أثناء احتفال الشعب الفيتنامى بالانتصارات الباهرة التى حققتها قواته المسلحة ، عقد « الحزب » مؤتمره الثانى فى شهر فبراير سنة ١٩٥١ ، وقرر المؤتمرون تغيير اسم الحزب إلى « حزب العمال الفيتنامى » وتلا « هوشى منه » فى المؤتمر تقريراً سياسياً تضمن تحليلا لسياسات الحزب فى شتى مراحل الحركة الثورية ، وعهد إلى الحزب وإلى الشعب كله بمهمة

الوصول بحرب المقاومة إلى النصر .

وأطرى الشعب لما أبداه من وطنية صادقة فقال :

« إن نفوس أفراد شعبنا مفعمة بالوطنية الحارة ، وهذه هي تقاليدنا التي لا تقدر بثمن ، فمنذ أقدم العصور كانت هذه الوطنية الجارفة تتجلى كلما تعرضت بلادنا للغزو ، وتتحول إلى موجة قوية تكتسح في طريقها كل الأخطار والصعاب ، وتغرق الخونة والمعتدين » [١] .

وتجلى إذ ذاك تضافر أعضاء الحزب وتماسكهم ، وتعاونهم الوثيق ، وكان ذلك نصراً جديداً في الحياة السياسية للشعب الفييتنامي الذي أصبح كرجل واحد بزعامة الحزب ، وقيادة « هوشي منه » ، وبذلك اتسع نطاق حرب المقاومة .

* * *

وفي أثناء حرب المقاومة عني « هوشي منه » ببذل كل ما في طاقته من جهد في سبيل تثقيف الشعب سياسيا ، والارتفاع إلى السمت بالتفكير العقائدي ، والفضائل الثورية ، وأسلوب حياة الكادرات وأعضاء الحزب .

ففي رسائله إلى « الرفاق في فييتنام الشمالية » و « الرفاق في فييتنام الوسطى » ، وفي كتابه « في سبيل تحسين أسلوب العمل » نجده يبرز الأخطاء والعثرات ، ويوضح للرفاق الوسائل الكفيلة بالتغلب عليها ، ويقول إن الفضائل الثورية هي :

الوعي العام ، والعمل ، والاقتصاد ، والاستقامة ، والشرف .

وبعد انتهاء المؤتمر الثاني للحزب تحدث « هوشي منه » عن واجبات الحزب فقال :

« يجب على حزبنا ، بوصفه حزباً قائداً ، أن يكون قويا سليماً ، وأن يكون خير قدوة ومثل » .

---

(١) راجع "كتابات هوشي منه المختارة".

« ويجب على الحزب كله أن يكون متحداً عقلياً وعملياً ، وهو لا يستطيع أن يضطلع بمهمته إلا إذا كان كرجل واحد » .

« إن مهمة الحزب هي الارتفاع بالمستوى العقائدى والسياسى لأعضائه والكادرات ، وبذلك يمكنهم من أن يكونوا لأنفسهم وجهة نظر بروليتارية صحيحة » .

ومضى يقول :

« نحن ، أعضاء الحزب ، أناس عاديون لأننا جميعاً أبناء الطبقة العاملة ؛ والشعب يكد ويتعب. ونحن نعرف شيئاً واحداً هو أن نكن الإخلاص والولاء للبروليتاريا ، وقد صممنا على النضال لصالح الشعب ، هذا كل ما فى الأمر ، وحزبنا عظيم جدا لأننا أناس عاديون جدا ، ولا يهتم حزبنا بشىء آخر غير مصلحة الوطن ، ومصالح الشعب ».

* * *

وكانت « حرب المقاومة» كلما ازدادت اتساعاً وعنفاً واستعاراً ، اشتدت حاجتها إلى مزيد من القوات . ومن ثم رأى «هوشى منه » وأعضاء اللجنة المركزية للحزب ، أن الموقف يقتضى تنفيذ برنامج للإصلاح الزراعى يستهدف تعزيز مؤخرة حرب المقاومة، والقضاء على النظام الإقطاعى فى الوقت نفسه .

وفى هذا قال « هوشى منه » :

«إن مفتاح نجاح حرب المقاومة هو تقوية «الجبهة الوطنية المتحدة » وتوسيعها ، وتعزيز التحالف القائم بين العمال والفلاحين ، وسلطة الشعب ، وتنمية الجيش ، ثم تقوية زعامة الحزب على نحو شامل . وتحتم الضرورة تعبئة الجماهير لكى تنفذ برنامج الإصلاح الزراعى . . . » .

وفى سنة ١٩٥٣ ظفرت «حرب المقاومة الفييتنامية » بسلسلة من الانتصارات العظيمة أكرهت القوات الفرنسية على اتباع أساليب الحرب الدفاعية ، وجشمتها خسائر فادحة فى جميع ميادين القتال .

والواقع أن الحرب فى الهند الصينية تحولت إلى قبر عميق الغور دفن فيه الفييتناميون عدداً كبيراً من الجنرالات الموهوبين، والجيوش القوية، والأموال . . . ثم اسم فرنسا نفسه ! .

ولقد حدث، إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، أن بدأت الولايات المتحدة تحاول التدخل فى شئون الهند الصينية توطئة لاحتلالها، ولهذا حرصت على أن تمد الفرنسيين بكل ما كانوا يحتاجون إليه لكى يطيلوا أمد الحرب .

وعمد الفرنسيون، على الفور، إلى تنفيذ الخطة الإمبريالية الأمريكية فأرهقوا قواتهم فى الهند الصينية، وأرغموها على الزحف بكل ما لديها من وسائل لاحتلال « ديان بيان فو » . وكانت خطتهم تقضى بالتوغل بعمق خلف القوات الفييتنامية لتطويقها، والقضاء على مقاومتها .

ورأى « هوشى منه »، بعد أن أدرك حقيقة نيات الفرنسيين، أن يتدارس الموقف مع أعضاء اللجنة المركزية للحزب، وكان الرأى عندهم جميعاً، بما فيهم أستاذ أساتذة حرب العصابات الجنرال « فونجوين جياب »، أن الفرصة قد حانت لإبادة العدو .

واستقر رأى « هوشى منه » على حشد الجانب الأكبر من القوات الفييتنامية للقضاء على العدو فى « ديان بيان فو » . وحين أتمت هذه القوات تطويق كل القوات الفرنسية بحزام من الحديد، وأوشكت أن تبيدها قال « هوشى منه » :

« إن الحكومة الفرنسية هى التى أشعلت الحرب . ولقد اضطر الشعب الفييتنامى إلى استخدام الأسلحة ببطولة للقتال خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الماضية، وذلك لصون استقلاله وحريته، ولكى يعيش فى سلام » .

« والآن . . . إذا مضى الاستعماريون الفرنسيون فى حربهم العدوانية،

فإن الشعب الفيتنامى موطد العزم على الاستمرار فى حربه الوطنية حتى النصر النهائى » .

« ولكن إذا أرادت الحكومة الفرنسية أن تتعظ بما حدث فى الحرب خلال بضعة الأعوام الأخيرة ، ورغبت فى وقف القتال عن طريق المفاوضات ، وتسوية المسألة الفييتنامية بالوسائل السلمية ، فإن حكومة جمهورية فيتنام الديمقراطية ستكون على استعداد للترحيب بذلك» (١) .

وفى يوم ١٧ مايو سنة ١٩٥٤ فرغت القوات الفييتنامية من القضاء على القوات الفرنسية فى « ديان بيان فو » ، وقد أرغم ذلك الانتصار العظيم الدول الاستعمارية على توقيع اتفاقيات جنيف التى انتهت بمقتضاها الحرب العدوانية ، وعاد السلام إلى الهند الصينية . واعترفت تلك الدول باستقلال بلاد الهند الصينية ، وسيادتها على أراضيها .

وكانت اتفاقات جنيف تنص على توحيد فيتنام الشمالية وفييتنام الجنوبية بعد عامين على أساس انتخابات عامة تجرى فى شطرى البلاد .

وهكذا تحررت فييتنام الشمالية بعد أن خاضت حرب المقاومة طوال تسعة أعوام أظهر خلال الفييتناميون بطولة قل أن يكون لها نظير ، وأنزلوا بإحدى الدول الاستعمارية الكبرى هزيمة قضت على وجودها فى تلك المنطقة قضاء مبرماً .

ولقد قال « هوشى منه » فى ذلك اليوم التاريخى :

« لا وجود لجيش أو سلاح يستطيع القضاء على روح التضحية فى نفوس الفييتناميين » .

* * *

---

(١) رد على أسئلة لمراسل صحفى أجنبى فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٣ — " كتابات هوشى منه المختارة " .

وفى شهر يوليو من العام نفسه عقدت اللجنة التنفيذية للحزب دورتها السادسة ، وتحدث « هوشى منه » إلى الأعضاء عن « الموقف الجديد والمهام الجديدة » ، فحلل خصائص الموقف فى العالم ، والموقف الداخلى ، وأبرز حقيقة ذات بال هى أن القوات الفييتنامية فى نمو مطرد على الرغم من انقضاء ثمانية أعوام أو تسعة على بدء حرب المقاومة . وقال إن العدو الأول للشعب الفييتنامى هو الإمبريالية الأمريكية التى تعادى الحركة الدولية فى سبيل السلام والديمقراطية ، وإن قوى الإمبريالية الفرنسية بدأت تخور بعد أن أبت إلا أن تشعل الحرب فى الهند الصينية ، وباتت أكثر اعتماداً على الإمبريالية الأمريكية .

ثم قال : « إن الطبقة الحاكمة الفرنسية انقسمت إلى معسكرين أحدهما يصر على المضى فى الحرب ، والثانى يميل إلى الصلح والسلام ، وهذا المعسكر الثانى الحاكم هو الذى يتفاوض معنا » .

وأمام هذا الموقف وضع « هوشى منه » شعارات جديدة لنضال الحزب والشعب كله :

السلام ، الاتحاد ، الاستقلال ، الديمقراطية .

وقد استقر الرأى أثناء دورة اللجنة التنفيذية على تغيير المبادئ التوجيهية وسياسات النضال على النحو الآتى :

توجيه رأس حربة النضال إلى الإمبرياليين الأمريكيين وإلى الفرنسيين وبذل كل الجهود فى سبيل إعادة السلام فى الهند الصينية ، والقضاء على المؤامرة التى دبرها الإمبرياليون الأمريكيون للمضى فى الحرب وتوسيع نطاقها ، وتعزيز المكاسب والإنجازات التى تمت لتحقيق الوحدة ، وتوفير كل مقومات الاستقلال ، والديمقراطية ، فى كل أنحاء البلاد .

وهكذا انتقلت فييتنام من النضال المسلح إلى النضال السياسى ، وخطت الثورة الفييتنامية خطوة جديدة لبناء الاشتراكية فى الشمال ، وإتمام الثورة الديمقراطية الشعبية فى كل أرجاء البلاد ، وتوحيدها سلميا .

الفصل الثانى عشر

التقسيم . . .

بينما كان « هوشى منه » يتخذ — بمساعدة الجنرال جياب — الإجراءات الكفيلة بتسديد ضربات قاتلة إلى القوات الفرنسية فى الأراضى الفييتنامية فى غضون عام ١٩٥٣ ، بدأت تظهر فى فرنسا حركة قوية عارمة استهدفت وضع حد لتلك الحرب الدائرة فى بلاد الهند الصينية النائية ، والتى تكلف فرنسا نفقات باهظة .

وكان كثير من الفرنسيين يرون أن تلك الحيلة الاستعمارية الفرنسية التى استحالت إلى حرب أهلية ، ثم إلى حملة ضد الشيوعية ، تتطور على نحو ينذر بنشوب حرب عالمية جديدة .

وكان الرأى السائد فى دوائر باريس الرسمية أن وفاة ستالين فى شهر مارس من ذلك العام فتحت آفاقاً دبلوماسية جديدة فى العلاقات بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وأن الواجب يقضى بالاهتداء إلى حل جديد غير الحل الذى كان قائماً على « مساندة الإمبراطور باوداى » الذى لم يؤد منذ سنة ١٩٤٩ إلا إلى إيجاد بعد جديد للمشكلة (١) .

ولكن ما الذى كان يريده « هوشى منه » ؟

هذا هو السؤال الذى كان الرسميون الفرنسيون يوجهونه إلى أنفسهم فى ذلك الوقت . وقد اهتم بهذا السؤال « سفن لوفجرين » مراسل صحيفة « إكسبريس » السويدية فى باريس بعد أن استمع إلى نقاش حاد دار

(١) راجع " هوشى منه " تأليف " جان لاكوتير " ص ١٥٧ وما بعدها .

فى مجلس النواب الفرنسى حول نيات الـ « فييت منه » . وقرر ، على الفور ، أن يرسل فى نهاية شهر أكتوبر مجموعة من الأسئلة إلى « هوشى منه » عن طريق السفارة السويدية فى بكين ، ورأى أن يركز معظم أسئلته على الشروط التى يجب توافرها لوقف القتال والوصول إلى تسوية سياسية .

وفى يوم ٢٦ نوفمبر تلقى « لوفجرين » إجابة « هوشى منه » وهذا نصها :

« إذا كان الشعب الفييتنامى قد اضطر إلى حمل السلاح والقتال ببطولة منذ سبعة أعوام أو ثمانية ، فإنما فعل ذلك دفاعاً عن استقلاله ، وعن حقه فى الحياة . وسيواصل الفييتناميون حربهم الوطنية حتى النصر النهائى ما دام الفرنسيون مستمرين فى حربهم العدوانية » .

وأضاف « هوشى منه » قائلا :

« ولكن إذا شاءت الحكومة الفرنسية ، بعد أن لقنتها الحرب الراهنة عدة دروس ، الوصول إلى هدنة بالمفاوضات ، وحل المشكلة الفييتنامية بالوسائل السليمة ، فإن جمهورية فييتنام الديمقراطية — حكومة وشعباً — ستكون مستعدة للإجابة بطريقة مرضية » .

وقد نشر رد «هوشى منه» فى صحيفة« إكسبريس » فى اليوم التالى .

وسمع « لوفوجرين » وقتئذ رجال وزارة الخارجية الفرنسية يقولون فى سخرية واضحة — « هل يريدون منا أن ندير دبلوماسيتنا على أساس هذا الكلام الصحفى ؟ . . . كلا . . . لن نفعل ذلك ! » .

بيد أن الرأى العام الفرنسى لم يسمح للحكومة الفرنسية التى كان يرأسها « لا نييل » بأن تهمل أية فرصة ، مهما كانت ضئيلة ، للخروج من تلك الورطة .

ولقد حدث آنئذ أن قرر مؤتمر برلين الذى عقد فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٥٤ ، واشتركت فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا

وفرنسا ، عقد مؤتمر رباعى آخر فى شهر أبريل لبحث المشكلات الآسيوية .

وفى غضون ذلك أعرب « رينيه بليفان » وزير الدفاع الفرنسى عن أمله فى أن يوضح « هوشى منه » أمانيه ، وبلجأ — لكى يتصل بزعيم الا « فييت مينه » — إلى « ألن سافارى » النائب الاشتراكى الذى كان قد استطاع ، فى عام ١٩٥٢ ، الاتصال بالا « فييت مينه » .

ولكن تلك المحاولة ذهبت هباء ، ذلك أنه على الرغم من أن رئيس الجمهورية الفرنسية أيدها ، فإن جورج بيدو وزير الخارجية الفرنسية رفض الفكرة رفضاً باتا وقال : « إن الا « فييت مينه » يوشك أن ينهار ، واتصالكم برجاله من شأنه أن يعزز قوتهم المعنوية . . . » .

بيد أن « سافارى » رد عليه قائلا : — « إنك تتحمل فى هذا الشأن مسئولية رهيبة » .

وهكذا انطوت ثلاثة أشهر دون أن يحدث شىء . وعند ما تراجع « بيدو » ، آخر الأمر ، فى موقفه ، كانت معركة « ديان بيان فو » قد انتهت باندحار الفرنسيين .

ومن العسير أن نعرف الدور الحقيقى الذى قام به « هوشى منه » فى المفاوضات الكبرى التى جرت فى برلين ، وفى مفاوضات جنيف التى بدأت فى اليوم السابع من شهر مايو ، حيث قال ممثل فييتنام العسكرى : إنه ليس لديه اعتراض على الخطة المقترحة لتقسيم فييتنام مؤقتاً ، وهى الخطة التى تمت الموافقة عليها يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٤ .

ولكن من المحقق أن ممثل فييتنام العسكرى لم يقبل التقسيم — المؤقت بطبيعة الحال — للأرض الفييتنامية ، على أن يجرى فيما بعد استفتاء حول إعادة توحيد شطريها ، إلا بعد أن استطاع « هوشى منه » العجوز بلباقته وحججه القوية ، أن يقنع رفاقه بوجاهة هذا الحل .

وفى يوم ٢٣ يونيو سافر « شواين لاى » الذى كان قطباً فى المحادثات ،

بعد أن اجتمع بمنديس فرانس رئيس الوزارة الفرنسية إذ ذاك فى مدينة بيرن ، إلى الشرق الأقصى للتباحث مع زملائه ، والتشاور مع الزعماء الآسيويين ، وبعد أن زار الرئيس الراحل «جواهر لال نهرو» ، التقى يوم ٣ يوليو عند الحدود الصينية الفيتنامية بـ « هوشى منه » . وبعد أن اتفق معه على شروط الاتفاق عاد إلى جنيف .

وفى يوم ١٣ يوليو التقى شواين لاى بمنديس فرانس مرة أخرى . ولما سأل رئيس الحكومة الفرنسية وزير الخارجية الصينية عن رغبات « هوشى منه » ابتسم قائلا : « إن كل من قابلتهم من ساسة فييتنام لا يريدون إلا السلام » .

ثم أضاف شواين لاى قائلا بلهجة شديدة الشبه جدا بلهجة هوشى منه » :

« يجب على كل من الجانبين أن يخطو بضع خطوات نحو الجانب الآخر . . . وليس معنى ذلك أن يخطو كل منهما نفس عدد الخطوات . . . » .

وفى تلك الأثناء تحدث « هوشى منه » إلى أعضاء اللجنة المركزية للحزب قائلا :

« فى هذه الظروف الجديدة يجب أن يحل السلام والوحدة الوطنية ، والاستقلال ، والديمقراطية محل " المقاومة حتى النهاية " . . . وعند ما يدخل المرء فى مفاوضات ينبغى له أن يقدم " تنازلات " إذا فعل الشخص الذى يفاوضه الشىء نفسه . . . لقد كنا نقول ، فيما مضى : طاردوا وحطموا الحملة الفرنسية . أما اليوم فقد وافق الفرنسيون على سحب جيشهم فى موعد محدد . . . وفى الماضى لم يكن ثمة وجود " للاتحاد الفرنسى " بالنسبة لنا ، أما الآن فإننا نقبل التفاوض للانضمام إلى " الاتحاد الفرنسى " ، على أساس مبدأ المساواة المطلقة . . . » .

وعرج « هوشى منه » على التقسيم المؤقت لفييتنام الذى قبله مندوبو

ال « فييت مينه » فى جنيف ، فقال :

« . . . إن هذا إجراء مؤقت لإعادة توحيد الوطن . . .إن مواطنينا الذين يقيمون فى مناطق كانت حرة حتى الآن سيغضبون عند ما يحتل العدو تلك المناطق مؤقتاً ، وستسود الدنيا فى أعين بعضهم ، وسيستبد بهم اليأس ، وعندئذ يتمكن أعداؤنا من استغلالهم . ومن ثم يجب علينا أن نوضح لهم أنه يجب عليهم أن يتحملوا هذه الظروف لأن ذلك فى صالح البلاد كلها . . . وستعترف لهم الأمة كلها بالجميل . . . » .

ومضى « هوشى منه » يقول :

« ومن المحتمل أن تحدث الأخطاء الآتية : انحراف اليسار . . . أناس تسكرهم الانتصارات المتوالية فيرغبون فى مواصلة القتال بأى ثمن حتى النهاية . وهؤلاء أشبه برجل يرى شجرة دون أن يرى الغابة . . . فهم يفرحون بتقهقر العدو دون أن يتنبهوا إلى مناوراته . . . إنهم يرون الفرنسيين دون أن يلمحوا الأمريكيين ، ويهتمون بالعمل العسكرى اهتماماً شديداً ويقللون من شأن العمل الدبلوماسى . وهم لا يدركون أن نضالنا العسكرى يجب أن يكون مقترناً بنضال فى المؤتمرات الدولية سعياً وراء الهدف نفسه ، ويشترطون شروطاً مجحفة ، لا يقبلها الخصم . . . ولا يريدون أن يفهموا أن الكفاح فى سبيل السلام معقد . وإذا تخاذلنا أمام هؤلاء القوم فإننا سنجد أنفسنا معزولين ، ومنفصلين عن شعبنا ، وعن شعوب العالم ، وعندئذ يصل بنا الأمر إلى حد الفشل » .

ثم ختم كلامه قائلا فى صراحة مذهلة :

« أما انحراف اليمين فإنه يمثل قنوطاً ، وتقديم « تنازلات » لا تستند إلى مبدأ . ولما كان اليمينيون لا يؤمنون بقوة الشعب فإنهم يضعفون روحه النضالية ، وينسون أننا تعودنا على تحمل المشاق ، ولا يتطلعون إلا إلى حياة هادئة كلها يسر »[١] .

---

(١) هوشى منه " كتابات مختارة " ص ٤٥٨ وما بعدها .

إن هذا الكلام الذى قاله العم « هو » فى اجتماع اللجنة المركزية ، ولا سيما حديثه عن « اليسارية » و « اليمينية » يدل على أنه بذل جهداً ضخماً لإقناع خصوم أقوياء أسكرهم النصر العسكرى العظيم الذى تم إحرازه فى « ديان بيان فو » بعد ثمانى سنوات بذل فيها الفييتناميون جهوداً مضنية ، وتحملوا ألواناً من التقشف والحرمان ، واستطاعوا أن يسيطروا على ثلثى أرض الوطن . . .

وهنا نرى أن نتساءل : كيف كان يفكر الزعيم العجوز عند ما عرف الشعب الفييتنامى فى ليلة ٢١ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٤ أن اتفاق الهدنة تم توقيعه ؟ هل كان يعتقد أن أهالى الجنوب سيطلبون بالإجماع ، فى استفتاء عام ، الانضمام إلى الشمال ؟

عند ما أبلغه الجنرال « جياب » ، قبل ذلك ببضعة أيام ، أن « ديان بيان فو » سقطت فى أيدى الفييتناميين ، قال فى هدوء ودون أى انفعال : « مهما يكن هذا النصر عظيماً فإنه ليس إلا البداية . . . » .

وفى العاشر من أكتوبر عاد العم « هو » إلى هانوى ، بعد انقضاء ثمانية أعوام على رحيله لتنظيم حركة المقاومة من أماكن سرية ، وخمسة أشهر على سقوط « ديان بيان فو » ، وشهرين على توقيع اتفاقات جنيف . . .

عاد فى هدوء كأنما تسلل إلى العاصمة ، ذلك أنه كان حريصاً على أن يكون إكليل الغارمن نصيب « جياب » ورجاله ، أبطال جيش الشعب .

* * *

الفصل الثالث عشر

الزعيم والشعب

قال العم « هو » فى شهر يوليو من عام ١٩٥٤ ، قبل عودته إلى هانوى : « السلام . . . ليس معناه سلاماً دائماً » . وأوصى الشعب بأن يذكر دائماً . أن النضال فى سبيل توطيد أركان السلام ، وإعادة توحيد شطرى البلاد ، وتحقيق النصر الكامل والديمقراطية ، هو نضال شاق طويل»(١) .

لقد شرعت فيتنام الشمالية تعمل من أجل التعمير الاقتصادى ، والتئام الجراح التى نجمت عن الحرب ، والتقدم ، رويداً رويداً ، فى طريق الاشتراكية .

وفى أثناء ذلك كان الإمبرياليون الأمريكيون يبذلون فى الجنوب ، بمساعدة عصابة الخائن « نجو دينه ديم » ، كل جهد مستطاع لتحويل فيتنام الجنوبية إلى مستعمرة أمريكية من طراز جديد ، وبذلك نقضوا اتفاقات جنيف نقضاً صريحاً صارخاً ، وحالوا دون إقرار السلام وإقامته على دعائم ثابتة حتى يكتب له الاستمرار ، وحالوا بوسائلهم الاستعمارية الخبيثة دون توحيد شطرى البلاد .

غير أن العم « هو » لم يفقد الأمل فى توحيد شطرى البلاد ، ولهذا حث الشعب على مضاعفة الإنتاج ، والاقتصاد فى المصروفات ، وذلك لبناء الاشتراكية التى تعد أساساً للنضال فى سبيل الوحدة الوطنية .

---

(١) هوشى منه : " كتابات مختارة " .

وفى هذا قال :

« إن « الشمال » هو الأساس ، وفيه جذور قواتنا المقاتلة . ولا يمكن أن يكون البيت متيناً إلا إذا كان أساسه قويا . والأشجار لا تكبر وتترعرع إلا إذا كانت جذورها قوية . ومن ثم يجب علينا أن نجتهد ، بكل ما لدينا من قوة « لتعزيز » « الشمال » تعزيزاً شاملا يكفل له القوة والصلابة ، والتقدم » .

وتحدث عن توحيد شطرى البلاد فقال :

« إن الشمال والوسط والجنوب . . . إنما هى بلادنا نحن . ومن المحقق أن بلادنا ستوحد ، وأن مواطنينا سيتحررون . . . » .

وأضاف قائلا فى لهجة قوية :

« إن مواطنينا فى الجنوب سبقونا جميعاً فى خوض غمار حرب المقاومة ومعنى ذلك أن وعيهم الثورى قوى جدا . ويقينى أنهم سيضعون المصالح القومية فوق أية مصالح أخرى ، وأنهم سيناضلون مع مواطنينا فى سائر أرجاء البلاد ، بغية تعزيز السلام ، وتحقيق الوحدة الوطنية ، وإتمام دعائم الاستقلال والديمقراطية . إننا — الحزب والحكومة وأنا — نتتبع الجهود التى يبذلها مواطنونا فى الجنوب ، ونحن واثقون فى قدرتهم على الانتصار . . . » .

ومضى يقول إيماء إلى العدوان الأمريكى بمساعدة الخونة المتواطئين مع واشنطون فى الجنوب :

« لا يسعنى أن أتناول طعامى بشهية ، أو أنام نوماً عميقاً ، ما دام وطننا لم يوحد بعد ، وما دام مواطنونا فى الجنوب يعانون صنوفاً من العذاب . . . إننى أعدكم رسميا ، أيها المواطنون فى الجنوب ، بأن فيتنام الجنوبية العزيزة ستعود إلى الوطن بتصميمنا وتصميم الشعب كله » .

« إن طبيعة الصخرة هى الثبات فى مكانها دون أقل حركة ، ولكن

إذا استجمع عدد من الأشخاص قواهم ، وأصبحوا كرجل واحد ، استطاعوا أن يحركوا الصخرة أيا كانت ضخامتها » .

« إننا نستجمع قوانا ، كرجل واحد ، مصممين على تعزيز " الشمال" وتنفيذ برنامج جبهة الوطن الفييتنامى : إن قوتنا عظيمة الدفع إلى أبعد حد . ولن تستطيع العصابة الأمريكية الفييتنامية الجنوبية الخائنة أن تظل مستقرة فى مكانها كالصخرة » .

وما برح الشعب الفييتنامى ، من الشمال إلى الجنوب ، يذكر الخطاب الذى ألقاه « هوشى منه » فى سنة ١٩٥٥ بمناسبة تحرير الشمال تحريراً تاما . لقد قال آنذاك :

« إننا نسير قدماً إلى الأمام بفضل قوة شعبنا المتحد ، مؤمنين أعمق الإيمان ، بعظمة المستقبل الذى ينتظر بلادنا ، وبروح النصر التى تعمر قلوب أفراد أمتنا الباسلة . لقد انتصرنا على طول الخط خلال حرب المقاومة البطولية التى خضناها فى الأعوام الثمانية أو التسعة الأخيرة وسننتصر فى نضالنا السياسى الراهن » .

* * *

لقد لبى شعب فييتنام الشمالية نداء رئيسه « هوشى منه » ، فمضى بهمة ، وعزم ، وإصرار ، فى تنمية التقاليد الثورية ، وبذل كل ما فى طاقته من جهد فى سبيل الارتفاع بصرح الاشتراكية .

وبفضل التوفيق فى إتمام برنامج الإصلاح الزراعى تحقق حلم يرجع عهده إلى أكثر من ألف سنة هو « الأرض لمن يفلحها » ، وتحرر الفلاحون من نير الملاك الإقطاعيين .

وسرعان ما تحولت فييتنام الشمالية من بلد زراعى متأخر إلى بلد يسير فى ركب المدنية والحضارة ، ويأخذ بأسباب الصناعة على أوسع نطاق ممكن ، وذلك بفضل المساعدات الكبيرة التى تلقاها من الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية .

وهكذا أنشئت صناعات جديدة واستغلت المناجم القديمة، ونمت الطبقة العاملة ، وتسابق ملايين من المتلهفين فى حماس شديد على الانضمام إلى الجمعيات التعاونية ، وتعاظم التنافس على مضاعفة الإنتاج بكل الوسائل المتاحة .

وفى المدن أدى تطبيق القوانين الاشتراكية على الصناعات الرأسمالية الخاصة إلى نتائج باهرة، وطفق صغار التجار وأصحاب المؤسسات الصغيرة ، يسيرون فى طريق النشاط التعاونى ، وأصبحت فييتنام تصدر منتجاتها المختلفة إلى عدد من البلاد لايستهان به، واتسع نطاق التربية والتعليم والأعمال الثقافية ، مما أدى إلى النهوض بالحياة المادية والثقافية فى فييتنام الشمالية شيئاً فشيئاً .

ومن المحقق أن الفييتناميين الجنوبيين يتجهون ، كل يوم، بقلوبهم إلى فييتنام الشمالية المتحررة، ويقينهم أن توحيد شطرى الوطن سيتحقق حتماً على الرغم من كل شيء، ومهما استطاعت جيوش الولايات أن تصمد أمام الضربات العنيفة القاتلة التى يسددها إليها الفدائيون والأبطال الذين يدينون بالولاء التام لجبهة تحرير فييتنام الجنوبية .

وإذا كان الشعب الفييتنامى يكن للرئيس « هوشى منه» حبا عظيماً فمرد ذلك إلى أنه وقف حياته كلها على خدمة الوطن والشعب .

وهو فى هذا يقول :

« لم يكن لى فى حياتى كلها سوى غاية واحدة هى النضال فى سبيل مصالح الوطن وسعادة الشعب . لقد كان على ، من وقت إلى آخر، أن أختبئ فى الجبال ، أو أن أدخل السجن ، لهذه الغاية بالذات » .

« إن لى رغبة واحدة، وهى رغبة قوية جدا . . . إننى أريد أن أعمل على نحو يكفل لبلادنا الاستقلال، ويضمن لشعبنا الحرية التامة المطلقة ، ويتيح لمواطنينا ما يكفيهم من الطعام ، والثياب ، والتعليم » .

الرئيس الراحل هوشى منه فى زيارة لإحدى القواعد العسكرية

الرئيس هوشى منه يتحدث الى القرويين فى إقليم « هاباك »

ويتحدث فى تواضع جم عن الدروس التى استخلصها من حياته الثورية فيقول :

«هذه الدروس هى : التضحية بحياتى كلها لتحرير الطبقة العاملة وكل الذين يعانون من الضغط والقمع ، وفى سبيل انتصار الاشتراكية ، والتعاون الودى . والسلام الدائم بين الأمم »(١).

* * *

ولئن كان الرئيس « هوشى منه » أعظم زعيم عرفته فييتنام فى تاريخها الطويل الملىء بالكفاح ، فقدكان — فى الوقت نفسه — مناضلا من طراز فريد فى الحركات العمالية والشيوعية الدولية .

فالشعب الهندى لم يكن يعده ممثلا لفييتنام ، ورمزاً لسيادتها فحسب ، بل كان فى نظره من أحب الناس وأقربهم إلى النفوس فى شبه الجزيرة الهندية .

ولقد قال زعيم الهند العظيم الراحل "جواهر لال نهرو" : « إن الرئيس " هو " رجل عظيم جدا فى الخمسين سنة الأخيرة من تاريخ العالم » .

وقال الرئيس الغينى سيكوتورى : « إن الرئيس " هوشى منه " رجل تعرفه الشعوب الأفريقية حق المعرفة وتحترمه . فلقد أسهم بنصيب ضخم فى التعجيل بحركة التحرير — وهى حركة ذات مغزى تاريخى بالنسبة للشعوب المستعمرة » .

والواقع أن الرئيس « هوشى منه » كان صورة للاتحاد الأخوى بين حركة التحرير الوطنية وبين البروليتارية العالمية ، وثورة أكتوبر الروسية ، والاتحاد السوفيتى ، وسائر البلاد الاشتراكية(٢).

وواضح كل الوضوح أن الرئيس «هو»كان يستمد عظمته من اندماجه

---

(١) هوشى منه : " كتابات مختارة " .

(٢) من مقال عن " هوشى منه " للمفكر الفييتنامى فام فان دونج فى صحيفة " نهان دان " — عدد ١٧ أبريل سنة ١٩٦٠ .

التام مع الكتل الجماهيرية ، وحرصه الشديد على أن يفضى إلى حقيقة حكمتها ، ويستمع إلى أصواتها فى صبر وأناة . ويدرس مقومات قوتها الحقيقية .

ولقدوضع الشعب الفيتنامى ثقته كلها فيه ؛ لأنه كان يثق دائماً بقوة الشعب . ولقد سجلت الثورة الفييتنامية لنفسها انتصارات متوالية رائعة حقا لأن الحزب الذى تزعمه « هو » عبأ واستطاع أن ينمى ، إلى درجة كبيرة جدا ، طاقات الشعب الجبارة ، وخصائصه ، وصفاته التى لا يمكن أن تقدر بثمن أثناء العمل الثورى الذى استهدف تحرير البلاد ، وبناء حياة جديدة . والرأى عند كثيرين من الأقطاب الشيوعيين أن « هوشى منه » شيوعى نموذجى لأنه كان يعانى الهموم قبل أن يعانيها شعبه ، ولا يعرف السعادة إلا بعد أن ينعم بها مواطنوه ، ولأنه استمر يحيا حياة بسيطة متواضعة حتى بعد أن ولى الرياسة ، على نحو ما كان يفعل أيام النضال السرى .

وكان يقول :

« إن بلادنا ما برحت فقيرة ، ومن ثم لا يسعنى أن أحيا حياة تختلف عن حياة مواطنينا » .

ثم يقول :

« إن حزبنا متحد وقوى ، وشعبنا متحد ومتحمس ، وجيشنا متحد باسل ، وسياساتنا سليمة ، والتصميم يعمر قلوبنا ، والأحزاب الشقيقة تمد لنا أيدى المساعدة . ولهذا — وعلى الرغم من الصعاب الجمة التى تعترض طريقنا — سننجح حتماً فى بناء الاشتراكية فى الشمال ، وإقامة السلام على دعائم ثابتة مستقرة ، واستكمال مقومات استقلال بلادنا المحبوبة ، وبذلك نسهم بنصيب ذى بال فى الذود عن السلام العالمى »(١) .

---

(١) هوشى منه " كتابات مختارة ".

الفصل الرابع عشر

الجنرال جياب يتكلم . . .

اللقاء الأول . . ثم . .

قبل أن ندع الجنرال «جياب» يتكلم ، يجب علينا أن نعرف شيئاً عن هذا القائد العسكرى العبقرى الذى يطغى اسمه على أخبار الصحف العالمية بوصفه العقل العسكرى المدبر وراء حرب الشعب فى فييتنام .

ولما كان زميلنا الأستاذ صبرى أبو المجد الصحفى العربى الوحيد الذى التقى بالجنرال « جياب » منذ عامين وتحدث معه طويلا فإننا نترك له الكلمة (١) :

منذ بضعة أسابيع وقف مستر رينيك عضو الكونجرس الأمريكى ، وأحد أصحاب المصانع والملايين فى نيويورك خطيباً فى مأدبة فاخرة أقيمت تكريماً له فى سايجون ، وأريقت فيها عشرات الصناديق من الشمبانيا ، وكان مما قاله رينيك : لقد شاهدت كل شىء فى فييتنام وأنا واثق بالنصر... النصر الذى سيكون ، دون أدنى شك ، ضخماً ، وعظيماً ، بل وسريعاً . . . إننا نملك الآلات الجهنمية التى لا يملك العدو جزءاً منها ، وهذا وحده سيكفل لنا النصر . . . » .

وكان « نجوين فوجياب» يستمع إلى هذا الكلام من محطة سايجون فى مكتبه المتواضع ، وأمامه لفيف من الصحفيين الأجانب ، ولم يعلق نجوين على كلام رينيك إلا بابتسامة ساخرة ! ! .

وعند ما سأل الصحفيون الأجانب جياب — أو زياب كما ينطقها

---

(١) من حديث فى مجلة « المصور » .

الفييتناميون – عن الأكاديمية العسكرية التى تلقى فيها علومه أجاب ضاحكاً : « إنها كمائن الغابات التى علمتنى كل شىء ! » .

وعند ما طلب منه أن يقارن بين قوات فييتنام وقوات الولايات المتحدة الأمريكية ، قال :

« سئل العم "هوشى منه" هذا السؤال أيام حرب التحرير ١٩٤٤ – ١٩٥٤ ، وكانت إجابته أن الفرق بين قواتنا وقوات العدو فرق كبير جدًّا إلى حد أن بعض الناس يشبه حربنا ومقاومتنا ضد الفرنسيين بجرادة تحارب فيلا ، ولكننا قلنا بحزم لهؤلاء المترددين والمتشائمين : إن الجرادة تحارب الفيل اليوم ، ولكن غداً سيكون الفيل قد تحلل وأصبح عظاماً نخرة . . . » .

ويستدرك جياب قائلا : « وليس معنى ذلك أن الفيل الأمريكى قد تحلل وأصبح عظاماً نخرة فهو من القسوة الآن بحيث يستطيع توجيه الضربات ، ولكنه – حتماً – سيتحلل ويصبح عظاماً نخرة عندما تكتمل الثورة الحاسمة ، ويصبح البحر – أعنى الشعب – هو السمك » ! .

ويرسل جياب ضحكة عالية يقطع بها سكوناً خيم على مكتبه . ثم يقول :

« أكبر خطأ ارتكبه الفرنسيون أنهم ظنوا أنهم يحاربون جيوشنا ولم يتوقعوا أنهم يحاربون مجموع شعبنا ، وكذلك اليوم يرتكب الأمريكيون نفس الغلطة عند ما ينسون الشعب ، وعند ما يعتمدون كل الاعتماد على الطيارات والدبابات . أما نحن فلم يتغير خطنا منذ بدأنا حرب التحرير . . . الاعتماد على الشعب ، ولا شىء غير الشعب » .

وجياب – القائد الأسطورى – كما عرفته وكما سمعت عنه – رجل بسيط للغاية ، يضحك من كل قلبه دائماً ، وكأنما لم تجرؤ الهموم على الاقتراب منه ، ويحرص على أن يملأ جيوب ضيوفه الأجانب بالشوكولاتة

والفواكه الفييتنامية . ويطالب منهم أن يحتفظوا بما تركه فى جيوبهم لزوجاتهم وأبنائهم . . .

يصر دائماً على القول بأنه رجل مدنى ليست الحرب حرفته . يحب السلام . يعبد الأطفال . يهوى تدريس التاريخ . يتميز بالعواطف الحارة . كما يتميز فى الوقت ذاته — وهذا أمر غريب للغاية — بالأعصاب الباردة حتى ليطلق عليه هوشى منه اسم الثلج والبركان فى وقت واحد ! .

وجياب . رغم حصوله على ليسانس الحقوق من جامعة هانوى عام ١٩٣٧ . ورغم حصوله على دكتوراه فى العلوم الاقتصادية عام ١٩٣٩ إلا أنه كان من الذين يقدسون تدريس التاريخ العسكرى .

ويقول أصدقاؤه إنه كان قادراً على أن يقفز إلى السبورة ليرسم . بأدق التفاصيل : مخطط أية معركة خاضها نابليون .

ورغم تفوق جياب فى الدراسة ، ورغم اشتغاله بالتدريس أثناء الدراسة . إلا أنه كان من أبرز أعضاء التنظيمات الثورية السرية منذ أن كان فى الرابعة عشرة من عمره ! .

ويذكر جياب ، بكثير من المرارة : كيف اضطره العمل الثورى : قبل بداية الحرب العالمية الثانية بقليل ، إلى الإقامة فى الصين ، وكيف فقد : فى هذه الفترة التى غابها عن فييتنام : زوجته وابنه : وشقيقة زوجته — فعذب الأعداء زوجته فى السجن إلى أن ماتت وطفلها ، ثم أعدموا شقيقة زوجته فى سايجون لنشاطها الثورى .

وفى الوقت نفسه يذكر جياب ، بمزيد من الفخر ، أيام كفاحه الأول فى « كاو سانج » حيث ولدت الحركة التحررية الفييتنامية مع بداية عام ١٩٢٩ ، ويروى كيف بدأ العم « هوشى منه » ورفاقه الأوائل : فام فان دونج ، ترونج شيه ، جياب — الحلقات الدراسية الأولى بكتاب صغير اسمه « طريق الحرية »، ويروى بداية العمل العسكرى المنظم الذى تم فى « باك بو » فى كهف بأحد الجبال يتراوح عرضه بين كيلومترين

وثلاثة ، ويصل طوله إلى ستة كيلومترات ، بينما لا يبعد هذا الكهف عن الحدود الصينية الفييتنامية بأكثر من كيلومتر واحد . . .

ويذكر كيف كان الرفاق لا يجدون فى الليل الغاز الذى يشعلون به المصابيح ، فكانوا يلتفون حول نيران الأخشاب يتناقشون ويغنون . ويروى كيف كانوا لا يجدون من الطعام إلا بعض الأسماك المشوية ، أو المملحة ، فيتناولونها كل يوم فى الصباح وفى المساء .

ويذكر جنرال جياب أياماً حزينة مرت به وبرفاقه ، عند ما جاءهم أحد الرفاق ليؤكد لهم أن « هوشى منه » قد قبض عليه داخل الصين ، وعذب حتى مات من التعذيب ومن المرض . . .

ويقول جياب : كان هذا أسوأ ما سمعناه . . . استولى الحزن علينا جميعاً . . . قررنا أن نخطر اللجنة المركزية بهذا الخبر السيئ . . . رحنا نبحث إمكانية العثور على جثمان العم « هو » ، وضرورة دفنه باحتفال مهيب . قررنا أن نرسل الأخ « كاب » إلى الصين ليعرف أى مكان دفن فيه العم « هو » . . . ثم حدث أن تلقينا بعد ذلك أوراقاً تحمل بعض مقاطع من شعر « هوشى منه » وسألنا الرفيق كاب الذى حول إلينا الخبر السيئ عن رأيه فى الأوراق التى جاءتنا من العم « هو » . وقال كاب : إن بعض رجال الكومنتانج — حزب تشيانج كاى شيك — قد أكدوا له وفاة العم « هو » . . . وطلبنا — كما يقول جياب — من كاب أن يروى لنا بالضبط نص الكلمات التى سمعها من رجال الكومنتانج — وظهر أن زميلنا أخطأ فى فهم بعض الحروف الصينية ، وهى متشابهة للغاية ، فظن أن كلمة نعم تعنى مات . . . وانفجرنا جميعاً بالضحك لهذا الخطأ الذى أوقعنا فى ربكة ليس لها مثيل ! ! .

* * *

والكلمة الآن للجنرال « جياب » ... الشبح المخيف الذى يقلق الجنرال

برامز قائد القوات الأمريكية فى فييتنام الجنوبية. بقدرما يقلق كبار رجال البنتاجون، وزارة الدفاع الأمريكية(١) :

«عندما اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية اشتد الضغط بقسوة ووحشية على حركتنا الثورية. فاضطرت المنظمات والهيئات الشرعية ونصف الشرعية إلى التوارى عن الأنظار : وإحاطة نشاطها بالسرية التامة».

« وحين كانت الجبهة الديمقراطية فى الهند الصينية تزداد قوة ، ونفوذاً، واتساعاً فى عام ١٩٣٨ ، كانت حكومة دلادييه "الفرنسية" قد تخاذلت واستسلمت للفاشيين ، وأصبحت هى نفسها حكومة "فاشية" ».

« وفى الهند الصينية كان الإمبرياليون يتحينون الفرصة، وبدأوا، فى فى عام ١٩٤٠ ، يهاجمون إقليم لانج صون . وكان الاستعماريون الفرنسيون ، الذين فتحوا الأبواب أمام اليابانيين ، يشددون النكير على الحركة الشعبية الفييتنامية ، وأدى ذلك إلى تضاعف عدد المعتقلين ، وازدياد حركة القمع عنفاً. ولقد توارى حزبنا عن الأنظار ، وقرر العمل فى الخفاء ، لكى يتمكن من مواجهة هذا الموقف » .

« وتنفيذاً لقرارات الحزب ، كان علينا — « فام فان دونج » وأنا — أن نجتاز الحدود ، ونيمم شطر الصين . . . كان موقفنا غاية فى الدقة . لقد كنت أتولى التدريس فى مدرسة تانج لونج ، وكان البوليس يراقب كل تحركاتى منذ بدأت التعاون مع إحدى صحف الحزب ، وقبل رحيلى التقيت بـ « هوانج فان نو » للمرة الأخيرة مع الأسف . . . لقد شرح لى الموقف ، وقال لى إن المهام الملقاة على كاهلى هى تنظيم وحدات حرب العصابات . . . وإعداد العدة لمواجهة الموقف عند ما يحتل الفاشيون اليابانيون الهند الصينية . . . وتوقع نزول قوات الحلفاء على سواحلنا . . . واتخاذ التدابير التى تمكن الجيش الفييتنامى من

(١) ذكريات عن " هوشى منه " — الطبعة الثانية ١٩٦٥ .

حماية الثورة الفييتنامية والذود عنها . . . والاستعداد ، بكل الوسائل المستطاعة ، فى كل المجالات والميادين ، لشن حرب العصابات فى الوقت المناسب » .

« وقبل أن يرحل قال لى : ما دمت ذاهباً إلى الصين فأمامك فرصة للالتقاء بـ « نجوين أى كووك » . اسأله عن مصير رابطة الشعوب المغلوبة على أمرها فى آسيا » .

« . . . ودخلنا الأراضى الصينية ، ووصلنا إلى مدينة كونمنج حيث كان فى انتظارنا « فونج شى كيين » و « فوآنه » اللذان طلبا منا الانتظار حتى يصل « فوونج » لكى يضع لى برنامج عملى » .

« . . . فى تلك المنطقة كان رفاقنا على اتصال آنئذ بالوحدات المحلية المتفرعة عن الحزب الشيوعى الصينى . وبمساعدة أولئك الرفاق وجدنا مقرا لنا ، وجمعنا عدداً من الكتب والمجلات ، وأقمنا شبكة اتصالات . . . وظلت منظمتنا تعمل فى سرية تامة لأن رجال تشيانج كاى شيك كانوا ساهرين » .

« . . . وكنت أنفق ساعات الفراغ فى دراسة اللغة الصينية. وكنت أعتقد أننى أعرف من هو « فوونج » . . . كانت تلك الفكرة تستبد بذهنى ذلك أننا حين كنا ثوريين فى ريعان الشباب كان "نجوين أى كووك" مثلنا الأعلى » .

« فنى عامى ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، عند ما كنا نجلس تحت صور صون يات صن ، ولينين ، وبوذا ، لإجراء مناقشات سياسية فى دار الوطنى العظيم « فان بواشاو» الذى كانت إقامته محددة فى « هيوى » ، كنا نذكر ما سمعناه عن الأعمال الخارقة التى قام بها « نجوين أى كووك » . . . وكان ذلك يثير حماستنا . . . وسرعان ما قرأنا جميعاً كتابه « قضية الاستعمار الفرنسي » الذى كان على غلافه عنوان باللغة العربية إلى جانب العنوان الأصلى . . . كانت تلك أول فرصة أتيحت أمامنا لقراءة

مثل هذا الكتاب الفوار بالاتهامات . . . وكان من أثر ذلك أن انفعلنا أيما انفعال . واندفعنا إلى العمل . . . » .

« . . . كانت ذكريات ذلك الماضى تملأ ذاكرتى خلال تلك الساعات التى كنت أنتظر فيها الالتقاء — بـ « فوونج » الذى لم يكن يخامرنى شك ما فى أنه هو « نجوين أى كووك » .

« . . . كنا آنذاك فى شهر يونيو ، شهر الصيف فى كونممنج . وكان « فوونج شى كيين » قد دعانى للتريض معه عند بحيرة «ثوى هو» حيث كان « فوونج » قد حدد لنا موعداً للالتقاء به . . . وبينما كنا نمشى بخطى وئيدة دنا منا رجل ناضج العمر ، يرتدى ثوبا أوربيا ، وعلى رأسه قبعة رمادية اللون .

وهنا قدمه لى كيين قائلا :

— الرفيق فوونج . .

« لقد تحقق ما كنت أشعر به . . . إنه — على التحقيق — نجوين أى كووك . . . كنت قد رأيت صورة التقطت له قبل عشرين عاماً ، وتذكرت ملامحه فى تلك الصورة . . . ولكنه أرسل لحيته بعد ذلك . . . » .

« لقد أحس كل منا — على الرغم من أننى لم يسبق لى الالتقاء به — أن بيننا صداقة عميقة كأن التعارف تم بيننا منذ وقت طويل . . . وطفق يمشى ببطء على حافة البحيرة ، وأخذ يتحدث إلينا . . . وسألنا عن نشاط الجبهة الديمقراطية ، وتطور الأحداث فى بلادنا . وعند ما وصلنا بالحديث إلى العمل الذى ينبغى أن يسند إلى ، بادرنى قائلا :

— لقد استطعت الوصول إلى هنا . . . هذا حسن جداً . . . لأننا فى حاجة إليك . . .

وسألته عن « رابطة الشعوب المغلوبة على أمرها » ، فأجاب :

— إنها مسألة كبيرة . . . ولكن الوقت لم يحن بعد . . .

«وعندئذ افترقنا . ثم عاودت الالتقاء به مع «فوونج شى كيين » و« فوآنه »

و «فام ڤان دونج» . كان يعرض للموقف الدولى ، و يحلل الأحداث التى وقعت فى الصين ، وتطور الحرب ضد اليابانيين . وكان يحذرنا من «الكومنتانج» . ويوضح لنا سياسته ، والدور المزدوج الذى يقوم به إزاء الحزب الشيوعى الذى كان يتظاهر بالتعاون معه ليقف الجانبان فى وجه اليابانيين ، مع أنه كان فى الواقع يعمل على سحقه » .

وذات يوم بادرنى قائلا :

سافر إلى «ينان » « لدراسة السياسة فى مدرسة الحزب ، وحاول أن تؤهل نفسك عسكريا . .

« وقبل سفرى إلى «ينان » التقيت بـ «نجوين أى كووك «مرتين أو ثلاث مرات» ، وكان يشجعنى فى كل مرة على توجيه جهودى إلى الدراسات العسكرية» .

« وغادرنا — "فام فان دونج" و "كاو هونج لانه" وأنا — مدينة كوتمنج إلى « كوى يانج » حيث أقمنا ثلاثة أيام كدنا نختنق فيها من الحر القائظ وانتظاراً للشخص الذى كان يجب عليه أن يقودنا إلى ينان » .

« . . . ولكن حدثت مفاجأة عشية سفرنا من كوى يانج : فلقد تلقينا من « هوكانج » برقية يقول فيها إنه سيصل ، وطلب منا انتظاره » .

« . . . كان الألمان قد احتلوا فرنسا آنذاك . . . وكان « فونج شى كيين » و « فو آنه » هما اللذان لحقا بنا فى كوى يانج ، وشرحا لنا تطور الأحداث ، وذكرا أن العم « هو » قال لهما قبل سفرهما : « ما دام احتلال فرنسا قد تم فمن المحقق أن تبدلاً سيطرأ على الموقف فى الهند الصينية » . ومن ثم استقر رأينا على السفر إلى « كوى لين» توطئة للعودة إلى فييتنام .

« وهكذا وصلنا إلى «كوى لين » حيث تم الاتصال بيننا وبين الجيش الثامن ، وحيث وعدنا رفاقنا الصينيون بأن يقدموا إلينا كل ما نحتاج إليه من عون ، ونظموا لنا مؤتمرات صحفية تحدثنا فيها عن الثورة فى فييتنام ، وبوصفنا أعضاء فى رابطة تحرير فييتنام التقينا بالجنرال

« لى تسى شن » الذى كان وقتئذ رئيس أركان حرب جيش تشيانج كاى شيك فى المنطقة الجنوبية الغربية .وقدذ كر لنا أثناء اللقاء أن قوات الحلفاء ستنزل على سواحل الهند الصينية ، ورجانا أن نساعده فى وضع خطة تيسر لقوة أن تدخل فييتنام » .

« ولما وصل العم "هو" إلى كوى لين ، أطلعناه على الخطط العسكرية لجيوش الكومنتانج ، فقال لنا : يجب أن نكون أفكاراً واضحة مجلوة فيما يتعلق بهذا الموضوع . إن لنا حليفين حقيقيين فقط يمكن أن تسعدنا انتصاراتهما ، وهما : الجيش الأحمر السوفيتى ، والجيش الأحمر الصينى . أما جيش تشيانج كاى شيك فهو جيش رجعى على الرغم من أنه يحارب اليابانيين . إن تشيانج كاى شيك يتحدث عن التعاون بين الكومنتانج و بين الحزب الشيوعى ، وعن مقاومة اليابانيين ، ولكنه — فى الحقيقة — لا يحاول إلا القضاء ، بكل الوسائل ، على الشيوعيين . ومن ثم يتحتم علينا أن ندرك أننا نقف أمام رجعيين » .

« لقد ناقشنا العم " هو " أثناء وجودنا فى كوى لين ، فى المهام التى يجب علينا أن نضطلع بها فى بلادنا . . . وذات يوم بسط لنا مشروعاته قائلا : إن الموقف يتطلب حشد كل القوى الوطنية وإنشاء جبهة وطنية ضخمة استقر الرأى أخيراً على تسميتها ، "فييت منه" » .

« ولقد حدث ، عقب وصولنا إلى كوى لين ، أن اشتعلت الثورة فى كوشنشين "فييتنام الجنوبية" ، ونشرت الصحف أنباءها بالتفصيل تحت عناوين ضخمة . وعندئذ أوشك صبرنا أن ينفد لأننا لم نكن قد استطعنا ، بعد ، الاتصال ببلادنا » .

« وشرح لنا العم " هو" الأمر قائلا :

إن الموقف الدولى والوطنى يتطور فى صالحنا على طول الخط . وما دام هناك انفجار "فى فييتنام الجنوبية" فمن الخير أن ننظم فى سرية تامة صفوف المواطنين حرصاً منا على صون حركتنا . . . » .

« . . . وقبل أن نرحل ساق إلينا العم " هو" توصياته الأخيرة قائلا :

« السرية . . . تذكروا السرية دائماً : يجب أن يعتقد العدو أنكم فى الغرب حين تكونون فى الشرق : سددوا ضربات مباغتة وانسحبوا قبل أن يتمكن العدو من أن يفعل شيئاً » .

« . . . لقد نفذنا توصياته فى كل مراحل تقدمنا . . . من أول يوم نظمنا فيه أنفسنا حتى معركة ديان بيان فو . . . وبهذه الإرادة الثورية مضينا فى النضال والقتال حتى النصر. . . »[١].

---

(١) ذكريات عن " هوشى منه " – الطبعة الثانية – هانوى ١٩٦٥ .

الفصل الخامس عشر

حوار شامل

فى شهر نوفبر من عام ١٩٦٦ أجرى « إيمانويل داستييه دى لافيجيرى » رئيس تحرير مجلة « إيفيمان » الباريسية مع الرئيس « هوشى منه » حواراً جامعاً مانعاً نسوقه هنا إلى القارئ بالحرف الواحد :

سؤال — يعتقد بعض الناس أن هذه الحرب الفييتنامية ، هى نزاع عقائدى ؛ ويعتقد آخرون أنها حرب فى سبيل الاستقلال الوطنى ، فما هو رأيك أنت يا سيدى الرئيس ؟

جواب — إن شعبنا شديد التعلق بالسلام ، والاستقلال ، والوحدة الوطنية . لقد ضربت الولايات المتحدة عرض الحائط باتفاقيات جنيف التى عقدت فى جنيف عام ١٩٥٤ ، وتضمنت اعترافاً رسميا بحقوقنا الوطنية . ثم راحت تشعل حرباً عدوانية ضد فييتنام الجنوبية ، وفى غضون العامين الأخيرين طفقت تشن غارات جوية وحشية على فييتنام الشمالية . وأمام هذه الهجمات والغارات وقف الشعب الفييتنامى كله ليحارب حتى النهاية دفاعاً عن وطنه .

سؤال — بدأ الأمريكيون منذ سنة ١٩٦٥ يوفدون حشوداً من قواتهم المسلحة إلى فييتنام الجنوبية . محاولين أن يستغلوا موسم الجفاف لاستعادة المبادأة فى ميدان القتال هناك ، هل يمكنكم أن توضحوا لنا نتيجة تلك الحركة ؟

جواب — لقد منيت القوات المسلحة الأمريكية بهزائم مريرة أثناء موسم الجفاف فى سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ على الرغم من أنها تلقت إمدادات

كثيرة . وخلال ستة أشهر خسرت الولايات المتحدة وأعوانها فى سايجون ١١١ ألف رجل بين قتيل وجريح ، دون أن تتمكن من استرداد المبادأة . إن سلطة حكومة سايجون المزعومة لا تشمل حتى المدن ، ولقد تكبد جيشها خسائر جسيمه من جراء حركات التمرد وفرار جماعات حاشدة من الجنود. أما جبهة تحرير فييتنام الجنوبية فقد أثبتت أنها هى الممثلة الحقيقية لشعب فييتنام الجنوبية .

سؤال — وما هى الدروس التى خرجت بها فييتنام الشمالية من هذه الحرب؟

الجواب — قوبلت الغارات التى شنها سلاح الطيران الأمريكى بضربات عنيفة وجهت إليه؛ فقد أسقطت ١٣٥٠ من الطائرات المغيرة حتى اليوم*. ولقد تكبدنا نحن أيضاً — بطبيعة الحال — بعض الخسائر ولكننا أعدنا تنظيم اقتصادنا بما يتفق مع الموقف الراهن .

فى سنة ١٩٦٥ استمر إنتاج الأرز فى الزيادة وقد بلغت محاصيل كثير من الجمعيات التعاونية الزراعية ، بما فيها الجمعيات الواقعة فى المناطق التى تعرضت لغارات جوية عنيفة ، خمسة أطنان للهكتار الواحد فى السنة. يضاف إلى ذلك أننا أنشأنا صناعات إقليمية ، واستطعنا أن نصون وسائل النقل والمواصلات ؛ وأن نحول دون ارتفاع تكاليف المعيشة .

وعلى الرغم من الغارات اليومية فإن ثلاثة ملايين تلميذ يذهبون إلى المدارس كالعادة . أما عدد طلبة الجامعات والمعاهد المهنية فيبلغ مائة ألف طالب .

وفى هذا دليل على مدى اتحاد شعبنا فى حبه لوطنه ، ومدى تصميمه على إنزال الهزيمة بالعدو ، مهما بذل من تضحيات .

---

* سجل هذا الرقم عندما دار هذا الحوار .

إن الواجب يحتم علينا أن نعبئ كل الشعب ، وكل مرافق البلاد وصناعاتها، استعداداً لحرب شعبية طويلة ضد المعتدين الأمريكيين . وأن ننمى الوعى الوطنى فى نفوس أفراد الشعب ، ونجعلهم يؤمنون بالبطولة الجماعية ، وأن ندفع بالحركة القومية إلى الأمام تحت شعار « الكل فى سبيل النصر » . هذه هى الخبرة التى نكتسبها من نضالنا الراهن فى سبيل الاستقلال الوطنى .

سؤال — هل أنتم فى حاجة إلى متطوعين من حلفائكم ومن البلدان الصديقة ، أم تحتاجون فقط إلى عتاد حديث ؟

الجواب — إن للولايات المتحدة قوة اقتصادية وعسكرية ضخمة . ولكى ننزل الهزيمة بمثل هذا العدو فإننا نعتمد ، أولا وقبل كل شىء ، على قوتنا الذاتية ، ونسعى ، فى الوقت نفسه ، إلى الحصول على أقوى مساعدة دولية فعالة .

ويطيب لى أن أذكر هنا أن للمساعدة والتأييد اللذين نظفر بهما من البلاد الاشتراكية الشقيقة قيمة كبرى . ولقد أعرب مئات الآلاف من المتطوعين فى البلاد الاشتراكية ، وفى بلاد أخرى ، عن استعدادهم للاشتراك معنا فى محاربة الإمبرياليين الأمريكيين . ونحن نزجى إليهم الشكر الحار على تضامنهم النضالى معنا ، وسنطلب منهم أن يعاونونا عند الاقتضاء .

سؤال — هل نستطيع أن نعلق أى أمل على الأقلية التى تسمى نفسها « متحررة » فى الولايات المتحدة ؟

جواب — إننا نعتقد أن فى حركة الاحتجاج التى نراها الآن فى الولايات المتحدة ضد « الحرب القذرة » تأييداً لقضيتنا . وعلى الرغم من إجراءات القمع التى تتخذها الحكومة الأمريكية فإن تلك الحركة فى نمو مطرد .

سؤال — ما الذى يستطيع الفييتناميون أن يتوقعوه من التأييد الأدبى

والمادى الذى يقدمه لهم فى سائر أنحاء العالم أولئك الذين يؤيدون استقلال فييتنام ، وخاصة التأييد الذى يلقونه من أصدقائهم الفرنسيين ؟

جواب — إننا نعرب ، مرة أخرى ، عن شكرنا وعرفاننا بالجميل للفرنسيين الذين تربطهم بشعبنا صداقة أخوية ازدادت قوة وتوثقاً أثناء النضال المشترك ضد الاستعمار .

إن نشاط الشعب الفرنسى ينطوى على إلهام عظيم لشعبنا المناضل : وعلى إسهام هام فى سبيل قضية السلام ، والاستقلال والديمقراطية . والاشتراكية فى العالم .

سؤال — ماذا يستطيع الأمريكيون أن يفعلوه ؟

جواب — إن الأمريكيين غارقون حتى أعناقهم فى ورطتهم الفييتنامية ، ومع ذلك نراهم يدبرون مزيداً من المغامرات ضدنا ، ولكن شعبنا على استعداد لمواجهة هذه المغامرات : ولقد عقدنا العزم على أن نقاتل حتى ولو دامت الحرب خمسة أعوام ، أو عشرة ، أو أكثر من ذلك .

إن الرئيس جونسون وأصدقاءه يخدعون شعبهم ، ويبدون تفاؤلا وهميا مزوراً بشأن موقف الولايات المتحدة فى فييتنام .

سؤال — ما هى احتمالات السلام ؟

جواب — كلما زاد الأمريكيون هذه الحرب « تصعيداً » ، تحدثوا عن استعدادهم المزعوم لإجراء « مفاوضات صلح » . ولكن هذا كله لا يعدو أن يكون ستاراً من الدخان .

ومع ذلك فقد نصحنا أناس من ذوى النيات الطيبة الذين خدعتهم دعاية الولايات المتحدة ، بأن ندخل فى مفاوضات صلح مع المعتدين بأى ثمن ، ولكنهم نسوا أن الولايات المتحدة لا تحتاج لإنهاء هذه الحرب إلا التعهد بالانسحاب . هذا هو الحل المشرف الوحيد للمشكلة .

سؤال — هل تعتقدون أن المبادئ التى تقوم عليها اتفاقات جنيف لا تزال سارية ومجدية ، وأنه يمكن إقرار السلام على هذا الأساس ؟

جواب – إن موقف فييتنام واضح ، وهو يتجلى فى « النقاط الأربع » التى ساقتها حكومة جمهورية فييتنام الديمقراطية (الشمالية) . وفى النقاط الخمس التى وضعتها جبهة التحرير القومية فى فييتنام الجنوبية. وموقفنا هو تعبير صادق عن شروط اتفاقات جنيف ، وانطباقها على الموقف الراهن . وهذا هو الأساس السليم الوحيد لتسوية مشكلة فييتنام .

سؤال – ماذا سيكون مستقبل فييتنام المحررة بعد الحرب ؟

جواب – بعد أن يعود السلام سيوقف الشعب الفييتنامى كل قوته وطاقته على إعادة بناء وطنه ، وتحويله إلى بلد موحد ، مسالم ، مستقل ، ديمقراطي ، ينعم بالرفاهية. وتربطه علاقات صداقة بكل شعوب العالم المسالمة .

الفصل السادس عشر

كلام فى الصميم

« السلام لا يكون سلاماً إلا إذا اقترن بالاستقلال والحرية » .

« هوشى منه »

فى غضون شهر مارس من عام ١٩٦٧ تلقى الرئيس الفيتنامى «هوشى منه» من الرئيس الأمريكى السابق ليندون جونسون رسالة هذا نصها :

صاحب السعادة . . .

« أكتب إليك وكلى أمل فى أنه يمكن وضع حد للقتال فى فيتنام ، ذلك القتال الذى أدى إلى خسائر جسيمه فى الأرواح والممتلكات وإلى بؤس بشرى . وإذا فشلنا فى الوصول إلى تسوية سلمية فإن حكم التاريخ سيكون قاسياً علينا » .

« ومن ثم أعتقد أن على كل منا واجباً كبيراً يقضى عليه بالسعى جدياً إلى إيجاد طريق لتحقيق السلام» .

« ولقد رأيت أن أكتب إليكم مباشرة ، ودافعى هو ذلك الواجب ، ذلك أننا حاولنا ، خلال السنوات الماضية ، بمختلف الوسائل والطرق ، أن ننقل إليكم وإلى رفاقكم رغبتنا فى تحقيق تسوية سلمية ، ولكن هذه الجهود لم تؤد — لأسباب ما — إلى أية نتائج » .

« ومن الجائز أن تكون آراؤنا وآراؤكم ، واتجاهاتنا واتجاهاتكم ، قد شوهت ، أو أسيء تفسيرها أثناء نقلها بتلك الوسائل المختلفة . ولا ريب فى أن ثمة خطراً فى الاتصال غير المباشر» .

« وهناك طريقة واحدة للتغلب على هذه المشكلة والتقدم فى سبيل الوصول إلى تسوية سلمية ؛ وهى بالنسبة لنا تدبير محادثات مباشرة بين ممثلين موثوق بهم فى مكان أمين وبعيد عن ضوء الدعاية ، ويجب ألا تستخدم هذه المحادثات كوسيلة للدعاية بل يجب أن تكون جهداً جدياً لإيجاد تسوية عملية يقبلها الطرفان » .

« وفى الأسبوعين الماضيين قرأت بيانات عامة أدلى بها ممثلو حكومتكم وتوحى بأنكم ستكونون على استعداد للدخول فى مفاوضات ثنائية مع ممثلى حكومة الولايات المتحدة بشرط أن نوقف « بدون قيد أو شرط » وبصورة دائمة عملياتنا الجوية ضد بلادكم ، وكذلك جميع الأعمال العسكرية ضدها . وفى الأيام الأخيرة أكدت لنا أطراف جدية ومسئولة ، بصورة غير مباشرة ، أن هذا فى الواقع اقتراحكم » .

« ودعنى أقرر بصراحة أنى أرى صعوبتين كبيرتين فى هذا الاقتراح . فنظراً لموقفكم العام لابد من أن يؤدى هذا العمل من جانبنا إلى تكهن عالمى بأن المباحثات دائرة ومن شأنه أن يسىء إلى خاصية وسرية هذه المحادثات ، وثانياً ؛ لا مفر من وجود قلق خطير من جانبنا نحو ما إذا كانت حكومتكم ستستخدم مثل هذا العمل لتحسين موقفها العسكرى » .

« وأنا على استعداد ، فى سبيل إنهاء الأعمال العدوانية ، أن أذهب إلى أبعد مما اقترحته حكومتكم فى أى من البيانات العامة ، أو بواسطة الطرق الدبلوماسية الخاصة . وإنى على استعداد لأن أصدر أوامرى بوقف الغارات الجوية ضد بلادكم ، وبوقف أية زيادة أخرى فى القوات الأمريكية فى فييتنام الجنوبية ، إذا أيقنت أن التسلل إلى فييتنام الجنوبية عن طريق البر والبحر قد أوقف ، وإنى أعتقد أن ضبط النفس من الجانبين سيمكننا من إجراء محادثات جدية وخاصة تكفل الوصول إلى سلام مبكر » .

«وإنى إذ أقدم هذا الاقتراح إليكم الآن يحدونى شعور محدد بالسرعة الناشئة

عن اقتراب إجازة رأس السنة فى فييتنام ، وإذا ما كان فى إمكانكم قبول هذا الاقتراح فإنى لا أرى من الأسباب ما يحول دون تنفيذه فى نهاية عطلة رأس السنة . كما أن هذا الاقتراح الذى تقدمت به سيعزز إلى حد كبير إذا استطاعت سلطاتكم العسكرية وسلطات حكومة فييتنام الجنوبية التفاوض فوراً لإطالة مدة هدنة عطلة رأس السنة » .

« أما بالنسبة لمكان المحادثات الثنائية التى أقترحها فهناك احتمالات عديدة . وإن فى استطاعتنا ، على سبيل المثال ، أن نجعل ممثلينا يجتمعون فى موسكو حيث دارت اتصالات فعلا . وفى وسعهم أن يجتمعوا فى دولة أخرى مثل بورما ، وقد تفكرون فى أماكن أخرى ، وسأحاول تلبية اقتراحاتكم » .

« إن الشىء المهم هو وضع حد للقتال الذى حمّل شعبينا ، وعلى الأخص شعب فييتنام الجنوبية ، أعباء جسيمة . وإذا ما كانت لديكم أية أفكار حول العمل الذى أقترحه فإن من المهم جداً أن أحصل عليها فى أقرب وقت ممكن » .

المخلص — لندون جونسون

وفيما يلى رد الرئيس هوشى مينه :

رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية — فخامة الرئيس :

تلقيت رسالتكم يوم ١٠ مارس ١٩٦٧ وهذا ردى عليها :

« إن فييتنام تقع على بعد آلاف الأميال من الولايات المتحدة . ولم يلحق الشعب الفييتنامى أبداً أى ضرر بالولايات المتحدة ولكن على النقيض من التعهدات التى قطعتها حكومة الولايات المتحدة على نفسها — عن طريق ممثلها فى مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ — فإنها تتدخل بلا انقطاع فى فييتنام . لقد أطلقت وشددت حرب العدوان فى فييتنام الجنوبية بهدف إطالة تقسيم فييتنام ، وتحويل فييتنام الجنوبية إلى مستعمرة جديدة ، وقاعدة

عسكرية للولايات المتحدة . وقد نقلت الحكومة الأمريكية — بقواتها الجوية والبحرية — لأكثر من عامين حتى الآن — الحرب إلى جمهورية فييتنام الديمقراطية ، وهى بلد مستقل ذو سيادة » .

« إن حكومة الولايات المتحدة ترتكب جرائم الحرب . وجرائم ضد السلام ، وضد البشرية . وفى فييتنام الجنوبية يلجأ نصف مليون من القوات الأمريكية والقوات الحليفة لها إلى أكثر الأسلحة لا إنسانية . وإلى أشد وسائل الحرب همجية ، مثل النابالم ، والكيماويات السامة ، والغازات ، لذبح مواطنينا ، وتدمير المحاصيل وإبادة القرى عن آخرها » .

« وفى فييتنام الشمالية ألقت آلاف الطائرات الأمريكية مئات الألوف من أطنان القنابل ، لتدمير المدن . والقرى ، والمصانع ، والجسور ، والسدود ، وحتى الكنائس . والمعابد ، والمستشفيات ، والمدارس . ويبدو فى رسالتكم أنكم ترثون للآلام والدمار فى فييتنام . فهل لى أن أسألكم : من الذى اقترف هذه الجرائم الوحشية ؟ إنها قوات الولايات المتحدة ، والقوات الحليفة لها . إن حكومة الولايات المتحدة مسئولة مسئولية كاملة عن الموقف البالغ الخطورة فى فييتنام » .

« إن حرب العدوان الأمريكية ضد الشعب الفييتنامى تشكل تحدياً لبلاد المعسكر الاشتراكى ، وتهديداً لحركة الاستقلال الوطنى . وخطراً داهماً على السلام فى آسيا والعالم » .

« إن الشعب الفييتنامى يحب الاستقلال ، والحرية ، والسلام حباً عميقاً ، ولكنه فى مواجهة العدوان الأمريكى قد نهض متحداً ، كرجل واحد ، متجرداً عن الخوف من التضحيات والصعاب . وهو مصمم على أن يمضى فى المقاومة حتى يفوز بالاستقلال الأصيل ، والحرية والسلام الحقيقى . . . وتتمتع قضيتنا العادلة بعطف وتأييد قويين من شعوب العالم كله ، بما فى ذلك قطاعات عريضة من الشعب الأمريكى » .

« لقد أطلقت حكومة الولايات المتحدة حرب العدوان فى فييتنام .

وينبغي لها أن توقف هذا العدوان . تلك هي الوسيلة الوحيدة لاستعادة السلام . وعلى حكومة الولايات المتحدة أن توقف ، بصفة نهائية ، وبلا شروط ، غاراتها بالقنابل وجميع أعمال الحرب الأخرى ضد جمهورية فييتنام الديمقراطية ، وأن تسحب من فييتنام الجنوبية جميع القوات الأمريكية والحليفة لها ، وأن تعترف بجبهة التحرير الوطنى لفييتنام الجنوبية ، وأن تدع الشعب الفييتنامى يرعى بنفسه شئونه الخاصة . هذا هو المضمون الأساسى لموقف حكومة فييتنام الديمقراطية ذى النقاط الأربع الذى يجسد المبادئ الأساسية ونصوص اتفاقات جنيف لعام ١٩٤٥ المتعلقة بفييتنام وهو الأساس لحل سياسى سليم للمشكلة الفييتنامية » .

« لقد اقترحتم — فى رسالتكم — إجراء محادثات مباشرة بين جمهورية فييتنام الديمقراطية وبين الولايات المتحدة . وإذا كانت حكومة الولايات المتحدة تريد فعلا هذه المحادثات فعليها ، أولا ، أن توقف بلا شروط غاراتها بالقنابل وجميع أعمال الحرب الأخرى ضد جمهورية فييتنام الديمقراطية .

« إن الشعب الفييتنامى لن يخضع أبداً للقوة ، ولن يقبل أبداً المحادثات تحت تهديد القنابل . إن قضيتنا عادلة بصورة مطلقة . . . والمأمول أن تتصرف حكومة الولايات المتحدة وفقاً لما يمليه العقل » .

المخلص — هوشى مينه

* * *

وفى شهر يناير من العام نفسه كان الرئيس « هوشى منه » قد أدلى بحديث إلى « وليم باجز » رئيس تحرير صحيفة « ميامى نيوز » الأمريكية بوصفه مديراً لمعهد الدراسات الديمقراطية فى مدينة سانتا باربارا بولاية كاليفورنيا .

وقد استهل الرئيس « هوشى منه » حديثه* قائلا : إن شعب فييتنام الشمالية حريص ، أشد الحرص ، على أن يسود السلام كل بقعة فى العالم ، ولكنه لن يفرط فى استقلاله ليشترى السلام .

وتحدث الرئيس الفييتنامى ، أثناء الحوار الذى اتسع نطاقه ليشمل عدة مسائل ومشكلات أخرى ، عن الحروب التى شغلت فييتنام خلال الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة ، وعما يبديه شعبه من جلد ، ومثابرة ، وتصميم على الظفر بالنصر ، وعن شدة اهتمامه بكل ما يحدث فى الولايات المتحدة التى يعرف الشىء الكثير عن أحوالها السياسية والاقتصادية .

وهنا يقول : « وليم باجز » :

« كان هوشى منه كريماً ، لطيف المعشر ، ودوداً ، ولكنه ، فى الوقت نفسه ، كان صارماً فى أدب حين تحدث عن سياسة بلاده . وفى بعض الأحيان كاد صبره مع المترجم ينفد ، فينظر إلى متحدثاً بلهجة إنجليزية سليمة » .

إن محور سياسة حكومته فى صراعها مع الأمريكيين هو ، فيما يبدو ، التصميم على سحق أية محاولة للنيل من استقلال جمهورية فييتنام الشمالية الديمقراطية وحريتها .

وهو فى هذا يقول بلهجة التأكيد والتصميم :

« إن شعب فييتنام يقدس الحرية إلى أقصى حد ، بيد أن السلام لا يكون سلاماً إلا إذا اقترن بالاستقلال والحرية . ولن نتنازل عن استقلالنا فى سبيل السلام ، فلقد حاربنا طويلا ذوداً عن استقلالنا وحريتنا » .

ومضى « وليم باجز » يقول :

« وكثيراً ما يسمع المرء كلمتى الاستقلال والحرية فى هانوى ، وفى كل

* هذا أول حديث أدلى به الرئيس هوشى منه إلى صحفى أمريكى منذ أعوام عديدة .

أنحاء الريف الفييتنامى ، والواقع أن لهاتين الكلمتين فعل السحر فى كل أرجاء البلاد .

« وقبيل اللقاء الذى تم بين هوشى منه وبينى ، قال لى أحد الوزراء :

« ينبغى لك أن تذكر أننا نخوض غمار الحرب منذ خمس وعشرين سنة. لقد اشتبكنا فى حرب مع اليابانيين بعد أن احتلوا بلادنا إبان الحرب العالمية الثانية . ثم عاد الفرنسيون ليحاولوا بسط حكمهم على هذه البلاد مرة أخرى ، فحاربناهم وهزمناهم . والآن نحارب الأمريكيين . ألا ترى الآن أننا خضنا غمار الحرب أعواماً عديدة ، ومن ثم لا يمكننا ، بحال ما ، أن نقبل المساس باستقلالنا ؟ » .

« إن هوشى منه أسطورة فى آسيا : لقد كان منذ نصف قرن يتحدث عن القومية والوطنية فى أوربا ، ولا سيما فى باريس ، مطالباً بالاستقلال لبلاده ما وجد إلى ذلك سبيلا ، والتحق بعمل متواضع فى نيويورك خلال فترة قصيرة من الزمن » .

ولقد أعرب لى عن احترامه لأمريكا قائلا :

« إننا نحترم الشعب الأمريكى ، لأنه شعب ذكى يحب السلام والديمقراطية . إن الجنود الأمريكيين يرسلون إلى هنا ليقتلوا ويلقوا حتفهم . ومعظمهم متعلمون . ولو أنهم جاءوا إلى هنا ليقدموا إلينا يد العون بوصفهم خبراء وفنيين لرحبنا بهم كأصدقاء وإخوة . . . بيد أنهم يجيئون ليقتلوا ويعرضوا أنفسهم للقتل . . . يا للعار » .

« وثمة أمر قد يصعب عليك أن تصدقه وهو أنى أتألم ليس فقط عند ما تزهق أرواح الفييتناميين ، بل عند ما يقتل الجنود الأمريكيون أيضاً ، ذلك إنى أشفق على ذويهم » .

ثم قال باجز :

« ولقد اتضح لى أن الأنباء التى أذيعت فى سائر أنحاء العالم عن

مرض هوشى منه ، وذلك بمناسبة بلوغه السابعة والسبعين * لا نصيب لها من الصحة على الإطلاق . وبهذه المناسبة يطيب لى أن أذكر أنه يحب الجدل والنقاش ، ويعرف كيف يبسط ما لديه من حجج قوية بعبارات بسيطة . وهو يستيقظ فى الساعة الخامسة من صباح كل يوم ، ويبدأ عمله اليومى فى الساعة السادسة » .

« وكثيراً ما يلتقى هوشى منه بوزرائه وبالشخصيات البارزة التى تزور هانوى قبل أن ينتصف النهار بوقت طويل . ولكن ، لأمر ما ، شاء أن يستقبلنى بعد الظهر »

وكان الرئيسى هوشى منه قد وجه فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٦ ؛ رسالة إلى الشعب الأمريكى هذا نصها الحرفى :

« أحب ، بمناسبة حلول العام الجديد، أن أعرب للشعب الأمريكى عن تمنياتى القلبية راجياً له السلام والسعادة » .

« كان ينبغى أن يعيش الشعبان الفييتنامى والأمريكى فى سلام وصداقة بيد أن حكومة الولايات المتحدة أرسلت — فى وقاحة وصفاقة — ٤٠٠ ألف جندى ، ومعهم آلاف الطائرات ، ومئات من السفن الحربية ، للاعتداء على فييتنام ، واستخدمت ، ليلا ونهاراً ، قنابل النابالم ، والغاز السام ، والقنابل التى تتفتت إلى شظايا قاتلة ، وغيرها من الأسلحة الحديثة لإبادة شعبنا ، دون أن ترحم حتى الشيوخ ، والأطفال . لقد أحرقت أو دمرت قرى ومدناً ، وارتكبت جرائم ممعنة فى الإجرام . وأخيراً أسقطت الطائرات الأمريكية قنابلها مراراً على هانوى ، عاصمتنا الحبيبة » .

ومضى العم « هو » يقول :

« وكان من جراء هذه الحرب الإجرامية التى أشعلتها حكومة الولايات

---

* نشر هذا الحديث يوم ١٣ يناير سنة ١٩٦٧ .

المتحدة أن تم تجنيد مئات الآلاف من الشبان الأمريكيين ، وأرسلوا لكى يلقوا حتفهم بلا فائدة بعيداً عن وطنهم ، فى ميدان القتال الفييتنامى. حدث فى مئات الآلاف من الأسر الأمريكية أن فقد الآباء أبناءهم والزوجات أزواجهن » .

«ومع ذلك ادعت حكومة الولايات المتحدة أنها تواقة إلى إجراء مفاوضات صلح ، محاولة بذلك أن تغش وتخدع الشعب الأمريكى ، وسائر شعوب العالم ، مع أن الواقع أن هذه الحرب تزداد اتساعاً يوما فى إثر يوم »

« وتخطئ حكومة الولايات المتحدة إذ تعتقد أنها تستطيع بالقوة الوحشية أن تفرض الاستسلام على شعبنا ، ذلك أن الشعب الفييتنامى لن يستسلم أبداً ، إننا نحب السلام ، ولكنه ينبغى أن يكون سلاماً حقيقيًّا ، مقترناً بالاستقلال والحرية . وفى سبيل الاستقلال والحرية وطن الشعب الفييتنامى العزم على مقاتلة المعتدين الأمريكيين حتى النصر النهائى ، أيًّا كانت الصعاب والتضحيات » .

« من الذى سبب هذه الأحزان وكل هذا الحداد للشعبين الفييتنامى والأمريكى ؟ إنهم الحكام الأمريكيون . لقد أدرك الشعب الأمريكى هذه الحقيقة . ويتزايد عدد الأمريكيين الذين يناضلون بقوة مطالبين الحكومة الأمريكية باحترام الدستور ، وشرف الولايات المتحدة ، ووقف العدوان فى فييتنام ، وإعادة كل الجنود الأمريكيين إلى بلادهم » .

وأخيراً ، قال :

« إنى أرحب بنضالكم ترحيباً حارًّا ، وأشكركم على تأييدكم النضال الوطنى لشعب فييتنام ، وأرجو مخلصاً أن يسجل الشعب الأمريكى انتصارات كبرى فى كفاحه من أجل السلام ، والديمقراطية ، والسعادة » .

* * *

وكان العم « هو » قد أعلن قبل ذلك ، بمناسبة الذكرى الثانية عشرة

لعقد اتفاقيات جنيف الخاصة بالهند الصينية * أن بلاده لن ترضى بأقل من شروطها الأربعة للموافقة على إجراء محادثات سلام بشأن مشكلة فييتنام، وأن أول هذه الشروط — وليس له بديل — هو انسحاب جميع القوات الأمريكية من الأراضي الفييتنامية .

وقال : « لقد شددت الولايات المتحدة غاراتها على فييتنام الشمالية لإجبارنا على إجراء مفاوضات سلام على أساس الشروط الأمريكية ، بيد أن شعبنا وجيشنا سيواصلان القتال يداً واحدة حتى النصر مهما كلفنا ذلك من تضحيات ومتاعب » .

ومضى يقول : « إن الحرب قدتستمر عشرة أعوام أو عشرين عاماً ، وقد تدمر هانوى وهايفونج وعدة مدن أخرى . وقد ترسل الولايات مليوناً من جنودها إلى فييتنام الجنوبية ؛ وقد تشترك آلاف الطائرات فى الغارات على فييتنام الشمالية . . . لكن هذا كله لن تكون له نتيجة سوى زيادة تصميمنا على المضى فى القتال حتى يهزم العدوان » .

ثم قال : « إن الغارات على هانوى وهايفونج ليست سوى أعمال يائسة من جانب الاستعمار الأمريكى ، أشبه بآلام وحش مفترس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة » .

---

* أفضى بهذه التصريحات فى ١٧ يوليو سنة ١٩٦٦ .

الفصل السابع عشر

فى المرآة

كتب جان لاكوتير يقول [1] :

لم أره يدخل قاعة الاستقبال التى كنت أنتظره فيها ، ولم أسمع وقع خطواته على الأرض ، فإن خفيه اللذين يشبهان أخفاف الرهبان كانا يتزحلقان على الأرضية « الباركيه » اللامعة فى القصر الذى كان يقيم فيه قبله المقيم الفرنسى العام فى تونكين ! . .

ـــ أشكرك يا سيدى على هذه الزيارة .

الصوت هادئ فيه شىء كثير من الرقة والنعومة ، واللهجة مبهمة إلى حد كبير ، حتى ليصعب على المرء أن يصفها أو يحددها .

لقد بهرتنى هذه الشخصية الأسطورية التى دخلت قاعة الاستقبال وكأنها أبت إلا أن تتحرك بطريقة هى أقرب إلى التسلل منها إلى أى شىء آخر ! .

كنت أتصوره أطول ، وذا ظهر مقوس بعض الشىء ، وأقل هدوءاً . . . بل لقد تصورته ممروراً ، فواراً بالحقد لما عاناه من مطاردة طوال حياته ، ومن جراء قسوة المعاملة التى لقيها فى السجون .

إن ما يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، أولا وقبل كل شىء ، هى إمارات الوداعة العجيبة المرتسمة دائماً على قسمات وجهه ، بيد أن هذه الوداعة تقترن بنظرة مذهلة ، نفاذة ، تنطلق من عينين أيقنت أنهما

---

(١) مجلة « هيستوريا » ـــ العدد ٢٥١ ـــ ص ١٠٢ وبعدها سنة ١٩٦٨ .

تريان كل شيء . وإن كان يلوح أنهما لا تدققان فى شيء على الإطلاق .

لقد بدا لى — لأول وهلة — بجبينه الضخم . وشعره الخفيف الثائر الذى وخطه الشيب تماماً . كأنه لم يعرف فى حياته إلا الشدة والعنف ، والأمر والنهى .

ولكنى سرعان ما وجدت على وجهه دلائل الاتزان ، والوقار ، والكياسة . والمرونة ، واللباقة .

ولكن هل يمكن أن يقال إن له نظرة ساذجة ؟

لا يسعنى أن أجيب على هذا السؤال بالإيجاب لأنى أعرف عنه أشياء تجعلنى أجزم بأنه لم يعرف معنى السذاجة طوال حياته .

المجامل المضطرب

ومن عجب أن فى حركات المجاملة التى يقوم بها شيئاً ينم عن الاضطراب . . .

فإذا قدم إلى ضيفه فنجان شاى ، أو قرب منه مقعداً ليجلس عليه ، أو مد إليه يده بعلبة سجائر . . . بدا عليه الاضطراب ، وخيل إلى زائره أنه يريد أن يعتذر دائماً عن اضطراره إلى الإقامة فى هذا القصر الفخم الذى كان يقيم فيه الحاكم الاستعمارى فيما مضى ! .

ومن الثابت المحقق أنه يعرف قيمة الاتصالات الشخصية حق المعرفة ، وهو بارع كل البراعة فيما يبديه من لطف ولين جانب حيال ضيوفه ، بل إن له قدرة عجيبة حقاً على تحويل النقاش العادى الهادئ الذى يدور بينه وبين زواره إلى حوار كله صدق وحرارة وإخلاص . . .

ومن ثم يصبح للكلمات العادية جرس قوى مذهل ! .

لقد تبادلنا يومئذ عدداً من الكلمات لا يحصى ، ولكن أنستنى معظمها تلك النظرة الحارة ، المدققة ، التى صوبها إلى . . . أنا الزائر المجهول ! .

لقد جلس أمامى على مقعد وثير ، وتحدث إلى بصوته الشجى الساحر :

— إن شعباً مثل شعبكم (الشعب الفرنسى) الذى أتاح للعالم أدب الحرية . . . سيجد فينا شعبكم أصدقاء، مهما يكن موقفه منا ! ويطيب لى أن أذكر لك يا سيدى أننى أعاود ، كل عام ، قراءة المؤلفات التى فاضت بها عبقريتا فيكتور هيجو وميشيليه ، وهذه القراءات تشعرنى بأن ثمة أخوة بين الشعبين الفرنسى والفييتنامى . . .

وأمسك عن الكلام هنيهة ثم استطرد :

غير أن هؤلاء الفرنسيين الذين ألتقى بهم فى كتب هيجو وميشليه يختلفون كل الاختلاف عن أولئك الذين أساءوا تمثيل بلدكم . . . آه يا سيدى . . .هل يتحتم أن يكون الاستعمار شيئاً سيئاً لكى يغير نفوس الناس إلى هذا الحد .

وهنا بدأت شعيرات ذقنه تضطرب ، وازدادت حركات يديه تعبيراً ، واحتد صوته . . . ولكنه بذل قصارى جهده ، واستجمع كل قواه ليظل هادئاً ، رابط الجأش . . . حتى لا يندفع فى مناقشة حامية قد تكون فيها إهانة لمحدثه . . . الذى هو أنا ! .

ثم غمرت وجهه الأسمر ابتسامة غريبة شدت خديه نحو عينيه البراقتين اللتين زال منهما كل أثر للسذاجة . . . ابتسامة مجعدة أظهرت أسنانه التالفة . . . إن لسحر شخصيته حدوداً ! ! .

غير أن تلك الابتسامة الغريبة لم تلبث أن زالت . . . ومرة أخرى استرد نظرته المؤثرة التى تشبه نظرة القسس الفرنسيسكان ! .

ولقد ذكرنى قميصه ذو اللون الرملى بقميص « صن يات صن ». . . وقمصان الموظفين الاستعماريين القدامى المحالين إلى المعاش . . . ولكنه — لأمر ما — بدا لى فى صورة مثقف ، محترم ، ومبجل من أهل « أنام » أراد أن يلبس رداء الثورة !

ال « فييت منه »

وعلى حين غرة . . . فاجأنى — وكأنه استطاع أن يقرأ أفكارى! — بتعريف لنا « فييت منه » قائلا إنه لا يعدو أن يكون جبهة قومية ديمقراطية بسيطة لا يضطلع فيها أصدقاؤه الشيوعيون بدور رئيسى على الرغم من أن لهم أغلبية الأصوات.

وهنا خيل إلى أننى أصغى إلى رجل طويل الباع فى وضع الخطط التكتيكية السياسية وهو يتحدث عن تحالف انتخابى ، أو ائتلاف برلمانى يستهدف إقرار إحدى الميزانيات .

ولئن كان العم «هو» على جانب من البراعة والفطنة فى إقناع محدثه بأنه يؤثر الاعتدال فى كل شىء ولا سيما فى حلبة السياسة ، فإنه ذو قدرة عجيبة جدا على تجنب الإجابة على الأسئلة التى تسبب له ضيقاً وحرجاً ، أو الاسئلة التى يعتقد أنها سابقة لأوانها .

من ذلك مثلا أننى حاولت أن أحمله على التحدث إلى عن المفاوضات التى جرت بينه وبين « سانتينى » مندوب الحكومة الفرنسية فى الأيام الأخيرة من شهر فبراير عام ١٩٤٦ ، فعمد إلى المراوغة بعبارات طويلة لا نهاية لها وفيها شىء غير قليل من الإبهام والغموض ، ثم أطرى الجنرال ديجول ، وتحدث عن ذكرياته فى باريس خلال سنة ١٩٢٠ ، وأخيراً أبدى رأيه فى مؤلفات الكاتب الفرنسى الكبير « اندرى مالرو » وزير الثقافة .

وانطوت ثمانية أعوام . . .

وها هو ذا يقف فى مواجهة شعبه بعد انقضاء يوم واحد على النصر . . إنه الزعيم العجوز الذى تجاوز الرابعة والستين . . .

مراجع البحث

BIBLIOGRAPHIE

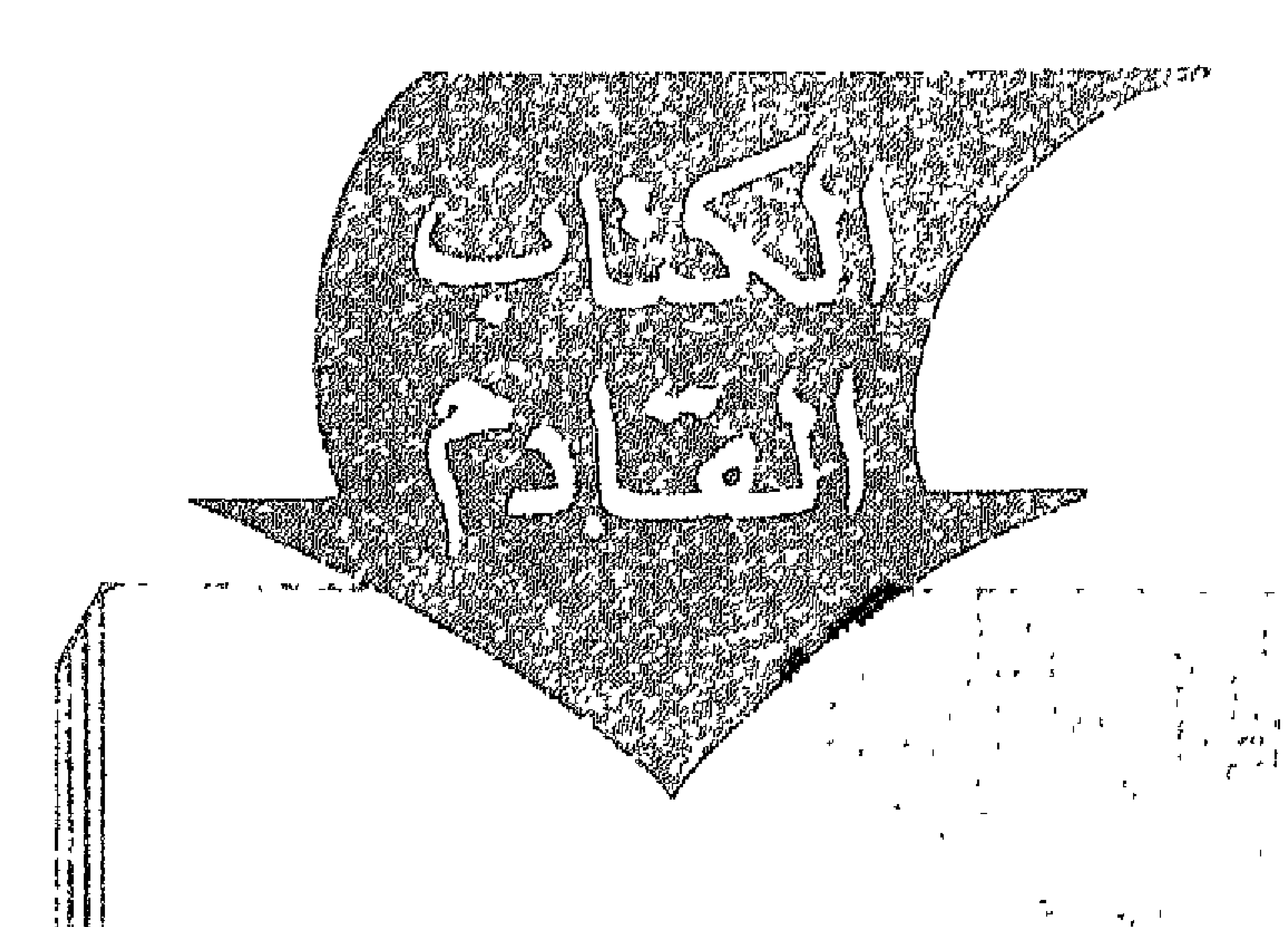
* Jean Lacouture : Ho Chi Minh.
* Sainteny : Histoire d'une paix manquée.
* Bernard Fall : Vietnam Witness : 1952-66.
* Ph. Devillers : Histoire du Vietnam.
* Wilfred Burchett : My visit to the liberated zones of South Vietnam.
* Truong Chinh : Le President Ho Chi Minh.
* Pham Van Dong : President Ho Chi Minh.
* Hoang Quoe : Recits de la resistance Vientnamienne.
* Souvenirs sur Ho Chi Minh : Hanoi.
* Letters from South Vietnam : Hanoi.
* Etudes vietnamiennes : Hanoi.

* * *

Le Monde, Paris Match, l'Evénément,Historia, le Courrier du Vietnam, Sunday Times, Observer, New York Times, Washington Post, Time, Newsweek, U.S. News World Report.

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٦٩



لمحات من المسرح العالمى

جاذبية صدقى

دار المعارف بمصر

تقدم

آسيا والسيطرة الغربية

تأليف ك. م. بانيكار

ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد

عرفت أوربا السواحل الآسيوية منذ نزول فاسكو دى جاما على ساحل قاليقوط يوم ٢٧ مايو ١٤٩٨ ، فسجلت نقطة تحول فى تاريخ آسيا ، ومن ذلك اليوم ، وحتى منتصف القرن العشرين ، عانت شعوب آسيا ألواناً من الجور والعسف على يد « البرابرة الحمر » الذين أتوا إليهم مبشرين فتجاراً فغزاة فمستعمرين .

والمؤلف يؤرخ لهذه الفترة الطويلة بأسلوب المؤرخ الذى يستقى مادته من الوثائق التاريخية ، وبقلم الصحفى الذى يبدع التصوير ، فيعطى دراسة تحليلية للظروف السياسية والاقتصادية التى مكنت للاستعمار الغربى من شعوب القارة الآسيوية ، والمراحل التى مرت بها العلاقات الأوربية والأمريكية الآسيوية حتى انتهت بتمزيق القارة إلى أشلاء ينهشها المستعمرون وينزحون خيراتها إلى أوربا حيث قامت الصناعية الأوربية على حساب آسيا .

٥٤٠ صفحة

الثمن ٥

